سامي الجندي

سليمان

رواية



سليمان

دار الجندي للنشر
سورية - دمشق

الطبعة الأولى
١٩٩٣ / ١٠٠٠

د . سامي الجندي

سليمان

مجانين أهل العشق ، لكن جنونهم
عظيم على أعتابة سجد العقل

سنة ١٩٨٢ ... ذات يوم

آن لنا أن نعود ، فقد احترقت وراءنا المزافيء ، وقبضت رائحة الدخان على تلابيب الروح ، حتى لتخرج من أنوفنا دماً ، ومن عيوننا دموعاً.

تهدّم بيتي في حكاية أبدأ بها روايتي ، لعلكم تدركون بعض أحزاني . كل أزهاري سقطت مع الشرفة الى حضيض الشارع وقذاراته . ومضت شهور دون أن يغسل . المطر نفسة انقطع ، مع أن الغيوم تلبدت كثيراً في الآونة الأخيرة. كتبي سرقها اللصوص الذين نعموا كثيراً بضيافتي ، وأوراقي سطت عليها الأقدام والأيدي وشبه البوليس ... أخذتها آثار الحكومة في بيروت التي تشبه ندوباً مستحيلة الشفاء .

لم يبق سوى جسدي . عناء متوحش يرهق كل أعصابه . كأنني تدوسني كل عصابات الرشوة والمجزرة ، والعصابات الزاعمة رفع مشعل الأخلاق على قمم الجبال ... موت مخيف اقتحمني . أدركت أني مقبل عليه ... لكن متى ؟

في الأيام الأخيرة لم يدع لنا طيران العدوّ فرصة التلفّت . كان الناس يهرعون الى أمام دون التفكير بمكان يذهبون إليه .

ظللنا حتى العشرين من الشهر نرفض النزول الى الملجأ ، بل كل نزول ... نريد أن نموت كراماً ... فكرة الموت لم تكن تراود أذهاننا جدّياً ... كنا نهازله ، لأننا خلناه يهازلنا ... الجيران الذين قتلوا ماتوا فيما يشبه الصدفة، دون قرار من أحد ، حتى ليبدو أن الله نفسه لم يتخذ بذلك قراراً

. . . ماتوا كما في النكتة : تكون ماشياً فتهوي ، ولايدري العابر قريباً منك لماذا هويت . . . كأنك تلعب لعبة ما . وكأنك أجهدك تكرار اللعبة فقررت أن تستريح قليلاً ، أن تنام على قارعة الطريق ، لأن وسناً ثقيلاً اقتعد جفنيك . . . وسناً يشبه الموت .

أكره الفرار . . . يرهبني مثل النزول وأكثر ، لكنني صرت أدلف مستأنياً الى الملجأ . أظهر للناس أني لست خائفاً ، وأعرف أن أحداً لايصدقني . . . أنا لا أصدّق نفسي . لكنني اشتهيت أن أموت ما دمت غدوت بلا جدوى . كأني خارج على تقاليد نفسي . أخفقت كل محاولاتي في أن أكون مجدياً . . .

فكرت فيما يجب أن أفعل . . . لم يهدني التفكير إلى شيء . . . كيف يمكن أن ترى وأنت على خطوة أو أدنى من الموت ؟

قلت في نفسي أذهب إلى مكان آخر بعيد عن الشهداء الذين بلا أكفان والموتى الذين بلا صلاة . نجوت بنفسي إلى حيث يمكن أن آكل إذا جعت فما زال الناس يأكلون في بعض الأزقّة وقوفاً لأن المطاعم التي يُجلس فيها أغلقت ، كما تغلق الأصابع عيون الذين يسقطون جزافاً .

تعرق جسدي كثيراً في الأيام الأخيرة كأن نتناً ما سكن ضلوعي وأرهقها حتى تفصّدت ماء ذا رائحة . أردت أن أغتسل فلم أجد ماءً . ذهبت الى البحر ، غير أن موانئه سدّت جميعاً ، ومراكب العدوّ ترود أمواجنا كديدبان لايتعبه النعاس . لقد سقط «علي فودة» على وجهه جرّاء شظايا قذيفة بارجة ، فتوّجت به مهمّتها في قتل الشعراء ، وسقطت من جعبته أعداد مجلتنا التي كان يبيعها متبرعاً ، كما سقطت زهوري على أرض الشارع والحمم ترجّ لها الأرض هنا وهناك ، حتى لقد أغلق مقهانا أبوابه ، وانزلق النرد على الرصيف الممتد من ضفّة الموت الى ضفة الموت الأخرى .

قلت في نفسي : « في بيتي بعض ماء . أذهب وأغتسل في الوقت الذي يتوقف فيه القصف . »

وهكذا فعلت . كان قراراً غبياً ، كأنه مقدمة لانتحار من يخاف الانتحار . يذهب إلى الموت كأنه مدفوع بقوّة خفيّة . والحق أن مسدسي كان على الطاولة وكنت أتلمسه في شهوة مزمع على غياب طويل ... غياب أبدي . أليس الموت غياباً ؟

لكن بين أن تتحسّس المسدّس وأن تشد على الزناد ، مسافة زمنية تكفي لأن ترود فيها كل نجوم المجرّة ، وأنت تستأني في القفز من نجم الى نجم .

وجدت ماءً ، ووصلت الكهرباء ، وانتظرت أن يسخن . شيء ما كان يقول لي : أسرع حضرت فنجاناً من القهوة ... شربت نصفه ... سخن الماء . تحممت بلذة لم أعهدها من قبل ، تشبه عناق فتاة شقراء . ولبست ثيابي ، وعدت الى فنجان القهوة ... رشفة ، ثم اهتز الحيّ جميعاً ... لم أترك الفنجان . قلت في نفسي : « أفكر قليلاً أولاً ، كي لا أفقد صوابي ... » وتوالت الصواريخ . لم استطع إنهاء الفنجان . تركته على المائدة ونزلت خطوة خطوة على مهل ، متعالياً ولو أنّي مكسور الظهر . قيل لي فيما بعد أن القصف استمرّ دقائق عشراً قلت بل عشرة قرون وتزيد .

فرغ الشارع لم يبق فيه سوى الضياع وبعض الضائعين : إمرأة يعدو وراءها طفل شارف السابعة يصيح : «ماما» وهي تزعق بما لا يفهمه أحد... وجهها كان أزرق ، على عتبة اختناق ... ثم فرغ الشارع من جديد ومرّت سيّارة من سيارات المقاومة في سرعة جنونية ، مع أن المسافة التي تريد قطعها قصيرة قصيرة ، والشارع ليس فيه سباق ، لكن التوتّر كان يقطّع الأعصاب قطعاً صغيرة صغيرة متناثرة على الطريق ...

حين زال الخطر سرت باتجاه الفندق ، وعزمت على الرحيل الى مرافىء

أخرى وفكرت في أن الشفاء قد يكون في الحيّ المترهّل الأدرد ، الذى ذهبت الزوابع بكل رؤوس جدرانه ، وقُلّمت له أظافره فبات حليماً لا يردّ كيداً للّصوص . ولقد وطئوه وسرقوا كل زهوره . أكلوا ثمارة وبالوا حيث كان يتأرجح الزنبق .

استرسلت في أفكارى الفندقية حتى صباح الغد . في الساعة الثانية عشرة ارتجّت الأرض مرة أخرى وأعول في السماء أزيز الطائرات المدمّر، وقنابلها جزاف على كل المدينة ... اهتز شيء في صميمي . حدست أن بيتي أصيب هذه المرة وأن أمعاءه اندلقت على الشارع الذى أجهده عبور الخوف والخطر .

جارتي الجميلة بقيت تحت الركام أربعاً وعشرين ساعة . لا بدّ من أنها تفسّخت في هذا الصيف القاتل ... لماذا تخلفت عن السفر ؟ رفيقات جامعتها رحلن جميعاً . عجيب !

أمن أجل الشاب الأسمر الذي حمل بندقيته وغاب مع مغيب الشمس ، كما تغيب النيازك في عدم قائم بين السماء والأرض . ورأينا صورته على الجدار المقابل ، ومازالت عليها غمزة عينه اليمنى الدائمة السخر، وعلى شفتيها ابتسامته الطائشة ؟ إقتربت كي أتأكد ، أو لعلّ الصورة تضحك فقد اشتقت إلى فرقعة ضحكته التي تشبه صهيل مهر كفر بالموت وربّما بالحياة .

إنه هو ... حبيته ... كاد يجيبني . كأن عينه اليمنى غمزت . كأنه أراد أن يخرج من صورته ليردّ التحية . كأنه أراد أن يجهش بضحكة عالية ... لكنه تلعثم إذ تذكر أنه مات . وتيقنت من تلك الحقيقة التي ذهبت بصفوة من أحبّهم .

لو أنهم يزيحون تلك الصور عن كاهل الجدار فله الحق في أن يتنفّس . لقد ثقلت عليه حتى كاد يهوي ، مع أنه خرسانة مسلّحة ..

كل صورة من تلك الصور تحمل عبء الملايين ومراراتهم وخوفهم وحبّهم وحقدهم . أفلا ينوء جدار بكل هذه الأثقال ؟

نعم ظلت ابتسامة صديقي السفاح على شفته ، نفس الابتسامة التي كانت تنير وجهه عندما يعبّ من كأسه ، أو يرنو الى صورة حبيبته ... نفس الابتسامة الحزينة التي تنبيء بمصير النازحين الى الضفة الأخرى قريباً من الفجر .

نعم ، قريباً من الفجر - وبعد أن رجع سالماً من معركة الليل - دخلت صدر السفاح ست رصاصات وظلّت ابتسامته تنير وجهه . لماذا سمّى نفسه بالسفاح مع أنه لم يكن كذلك . ترى هل كان يظن أن ذلك حقه ؟ وأنه لن يرد العار مالم يكن سفاحاً ... تلك هي تناقضات المعارك .

نعم قريباً من الفجر دخلت ست رصاصات صدره . لكنه مات دون دموع ، دون وصيّة ، بل دون فراق ، دون خوف ، وانتقل الى جداره . وكأنه يدعونا إلى إحدى ولائمه الصاخبة الكريمه . ظل يشير الينا بإشارة النصر . ونحن قلّما نفهم ما يقول الموتى . لكنّ السفّاح كان بليغاً حتى ليكاد ينطق .

قال لي ! أنتظر موتي انتظاراً وأرجو ألا يأتيني بغتة . أرجو أن ينتظرني حتى المعركة التي أقرر فيها موتي .

- لماذا ياسفّاح متّ دوْن أن تتخذ قرارك ؟ لو فعلت كنا أقمنا لك عرساً . كنّا مابكينا ، كنا زغردنا كنسائنا اللائي رفضن العويل . يبدو لي أنك أحببت أن تحرمنا من مسرّة وداع الشهيد .

مادام مات ، لماذا لم تسافر جارتي الجميلة ... قيل لي انها أحست إعياءً بالركبتين أمسك بها على النافذة التي تطلّ على الصورة الدائمة البسمة ... تأخّر موعدها معه يومين لأن مسالك المدينة لم تبح لها وفاءً بوعد وبقيت كي تراه ، لأنها لم تصدّق أن موته يردعه عن موعدها . ورفضوا لها أن تكفّنه

بجديلتها السوداء ! ثم جاء الطيران وانهارت البناية ... لماذا لم يقصّوا جديلتها ؟ إنها الكفن الوحيد الذى يحقّ للشهداء . لماذا لم ينشرو صورتها على الجدار ؟

* * *

بتُّ بلا مأوى . ورفض المقاتلون بندقيتي لأنها صدئت فلا تصلح للقتال. جسدي صار خارج المعركة . والصور تودّعني وتهيب بي الى الرحيل من على جدارها الإسمنتي . ورحلت واجماً كأني في غفلة عن كل ما يجري.

* * *

من بيروت الى الضيعه ، لم يكن على الطريق أحد . اختفى الناس فيما يشبه المعجزه ، غير فنان أرهقه جمال صوته وكؤوس كثيرة كي يبيح للموّال أن يجتاز حدود الإنسان الى مدى مفرقٍ في الأبد ، أوقف رحلتي فقد حرن موّالنا على لمى شفتيه ، لا يتجاوزه عشرين سنه . عشرون عاماً من فراق واحتراق حالت فيها أغانينا رماداً ... الموّال وحده بقي حيّاً متكتّماً كأنه سرّ من الأسرار .

جلسنا . قسرنا أنفسنا على الضحك . وضع كفّه على خدّه وصاح : ياليل ! ثمّ صمت فأدركت أني لن أسمع الموال ، وأنّ المطرب الذى ملأ عصفه ثغور المدن البحرية وقرى الجبال التي تدلّت من السماء في سلال عنب وتين ، فحدست من أنينه أنه كان مغادرنا قريباً ، لكنّه لايقوى على أن يقول لنا وداعاً!

نهضت وسرت أيضاً دون أن أقول وداعاً فقد علّمني المقاتلون كره التلويح باليد لأن ذلك كان في غالب الأحيان ، ينبيء عن صورة جديدة على الجدار المقابل .

لكم اتسعت الدروب في غيابي ... باتت تشبه سبل الفردوس . لكن

قريتي على كتف الصحراء ، اربدّ طريقها ، وهو يختفي حيناً ويبدو حيناً . غدا مزاحه ثقيلاً في غيابي والعتمةُ حوالي وما من أحد على الدروب . تطلّعت إلى السماء وبصقت بوجه النجوم .

امام السهول وجدتني وحيداً حتى النزيف . أين ذهب الخلق ؟ قيل لي إنهم ذهبوا كي يشتركوا في تشييع الجنازة ، ثم تبعثروا ... أية جنازة ؟ تعبت من التساؤل والتعليل ، فما لهذا غادرت بيروت . في القرية وجدت البشر نياماً ، أو على نيّة النوم . أنكرني أهلها . لم تعرفني أم علي التي كنت أذهب وإياها إلى الكرم في طفولتنا كي نملأ سلّتنا عنباً . الذين شاركتهم الكسرة والرغيف حدّقوا إلي كمن فقد الذاكرة ... بل لقد فقدوا الذاكرة . كأن عيونهم جوفاء . طرقت باب مساعدي القديم في شؤون الطّب . نظر إلي طويلاً ورجع إلى الوراء خطوة ثم عاود التحديق ثم صاح : «هذا أنت ؟»

ـ نعم أنا ! أريد مفتاح الباب !

ـ في مكانه . لم يبدّله منذ عشرين سنة . أمسحه بين الفترة والفترة كي لا يصدأ . أخرجه وأفتح ترى أن شيئاً لم يتغير . كأنك خرجت لنزهة قصيرة ورجعت .

نعم كانت النزهة قصيرة . بقي كل شيء في مكانه غير ثروتي . كنت أزخر بوعد عظيم ، وفلّ الحدّ عبر الغياب ، الذى أكل في تؤدة إشراقي !

* * *

كان المفتاح في مكانه ، غير أن خشب الباب يبدو وكأنه ثوب اهترأ . وضعت يدي في الوجر الذى فوقه ، فأخرجت المفتاح ثم دخلت ...

البيت على حاله كما في اليوم الذى مات فيه أبي ... جدرانه الأربعون مازالت قائمة جميعاً ، غير أن الرياح برت رؤوسها فتكوّرت قليلاً وفيها ألف ثقب وثقب ، كأنّ الزمن رماح تطعن الصدر . والجلنار زهرتي العجيبة الحمره

سقط أكثرها على الأرض . لم يرو الرمّان السقاة .

طرق الباب ... عجيب ! لم يعرف بقدومي الناس

ـ هه ، سليمان ؟ ... أهلاً وسهلاً ... كيف عرفت بمجيئي ؟

ـ منذ ثلاثة أيام حلمت بأنك قادم وفي هذه الساعه عينها ، فلم أنم وأتيت كي أراك ...

ـ في المنام ؟

ـ نعم ، منام الإسماعيلي نقر في حجر ...

ـ ربما ...

ـ ألا تؤمن بذلك ؟

ـ كفرت بأشياء كثيرة ...

ـ لم تعد اسماعيلياً ... (لم أحر جواباً) ... إلى من تنتسب إذن ؟

ـ إلى العصاة .

ـ ماذا ؟ لم أسمع بهم ...

ـ أنت لم ترهفِ عمرك السمع ياسليمان

ـ بماذا يؤمن العصاة ؟

ـ بنسف العالم من جذوره لأنه بات قديماً ... اهترأت أفكاره ومثله ، كما اهترأ باب داري ... نؤمن بقيامة كبرى تلغي كل ما تعلمنا ... ثم نبني عالماً جديداً ...

ـ قبل أن تسافر قلت ذلك ...

ـ مارأيك أنت ؟

ـ رأيت أشياء أخرى ، وتعلمت في غيبتك مالم يتعلمه سواي ... كيف فتحت الباب ؟

ـ بالمفتاح ... أخرجته من الوجر الذى فوقه .

ـ من الوجر ؟ مجنون أنت ؟
ـ لماذا ؟
ـ تسكنه حية رقطاء ... احذر ... لقد حسبت هذا الحساب وعزّمت عليها كي تنام حين تمد يدك.
ـ عزّمت عليها ؟ ماذا تقول ؟ لم أفهم !
ـ هل تذكر الحواة الذين ذهبوا الى بيتكم في القرية وأخرجوا منه أربع حيات ؟
ـ أذكرهم جيداً ، وأذكر دفوفهم وضربهم عليها ... كان أحدهم جميل الصوت .
ـ عرجوا على بيتنا فأخرجوا منه ثلاثين حية أو تزيد .
ـ ثلاثين ؟
ـ أو تزيد . أنت تعرف أن جزءاً من بيتنا هو قطعة من السور القديم . تركناها على حالها هي وما فيها من بهائم ... أخرجوا الحيات منه . لكنهم عجزوا عن حيّة بيت أحمد الشجاوي.
ـ أية حية تعني ؟
ـ تلك التي كانت مرسومة على الحجر الضخم الذي فوق البوابة الكبيرة...
ـ ما لهم وللحيات المرسومة على الحجارة ...
ـ أخطر الحيات ما كان دون حركة . ما زلت قليل العلم . لم تر إليها كما ينبغي ... كانت عيناها تلمعان ليلاً...
ـ تلمعان ليلاً ؟ ماذا جرى لك ياسليمان ؟
ـ أؤكد وكنت أرهبها ... لما تعرّفت على المشايخ الحواة قررت أن أرافقهم ، وأخذت معي ربابي . اشتغلت عندهم ، أفلح الأرض وأقوم على خدمتهم لقاء الطعام وتعلّم مايعرفون . ولقد تعلمت منهم مالا يعلمه سواي ... وأخذوني إلى أبيهم الشيخ ، وهو طاعن في السن ، معتكف في المسجد الجامع ، لايريمه.

سألته بكل تواضع أن يجعلني تلميذه فوافق ، وقضيت عنده سنين ثلاثاً .
ـ وماذا تعلمت منه ؟
ـ لاشيء وكل شيء . . . كان يروي الأشعار . وأحياناً يقول أشياء من عنده نثراً وشعراً . . . يتهدّج صوته وتلمع عيناه ، فتخال شرارات تصدر عنهما حتى يسقط إعياءً فأحمله إلى فراشه ، وقد ابتل جسده عرقاً ، حتى لكأنّه اغتسل . لم يعلمني شيئاً محدّداً . علمني السّيطرة على الذات بالتأمل والحبّ والتحديق وحسن الرواية . . . كان يطلب مني أحياناً أن أغنّي له عتابا ، وأحيانا بعض أبيات من الشعر الصوفيّ ، وأن أعزف على الرباب في غرفته الملحقه بالجامع فأتردّد احتراماً للمكان فيقول :
ـ لاتخجل يابني . . . مادمنا نغنّي للحبيب . . . مادام يسمعنا ويرضى فمالك وللخلق !

إنتبهت إلى أنّ عيني سليمان تبدّلت نظرتهما عما كانت عليه منذ عشرين عاماً . داخلهما بعض من لمعان وبدا في صوته تردد من تشغله أفكار لايدرك كنهها . واستمرّ يقول : « وبعد أن انقضت السنون الثلاث قال لي شيخي [إرجع إلى أهلك فأنا عن قريب أغادر الدنيا] » .
ـ عدت لكن لم أجد أحداً يفهمني . . . أو يصدقني ! إنهم يكذبونني . . . يختلقون عني الإشاعات . . . ليس في قلوبهم مكان للحب . . .

وتوقف قليلاً ثم أردف : « أوانُ الحبّ ماجاء بعد ! »
ـ أنت تبالغ أحياناً على ما يبدو .
ـ قصّة الحية الحجرية مثلاً ؟ لم تصدّقها أنت أيضاً ! تعال معي !

كنت متعباً أفضل أن يذهب وأنام ، لكن ماقاله أثارني . ذهبنا إلى بيت أحمد الشيحاوي الذي كنت ألعب فيه وأنا صغير . والحجر أعرفه جيداً . لم يكن في مكانه . سقط على الأرض ، لأن البوّابة الكبيرة تهاوت بفعل الزمن

والإهمال . نظرت إليها . لم أجد أثراً لحيّة. ورجعت بذاكرتي إلى الوراء وتساءلت : « هل كانت هنالك حيه ؟ لم أتذكّر جيداً . أظنّها كانت موجودة. لم أستطع أن أنفي وجودها أو أجزم به . وأراني سليمان أثرها . فشككت بأمره . ترى هل أزاله احد بالنقر عليه . . .

عندما كنّا صغاراً ، كنّا نلهو بالنقر على الحجر كي نحفر تماثيل تشبه التماثيل القديمة.

قلت : « كيف أنزلتها ؟ »

- بفعل قوة عيني الخارقة . . . عندما يرقد الناس ، تتوهّج قوّتي ، ويضيء قلبي، فتلمع العينان . . . كنت أقعد هناك وأشار إلى الحجر الذي يستند إلى جدار جامع الإمام إسماعيل ، فأركّز قوتي وأحدق إليها . . . ظللت شهوراً أفعل ذلك . سقط بعدها الحجر على الأرض في الوضع الذي ترى . كأنها اختارت مواجهتي في جلستي . تأكدت ساعتئذ من نجاحي في مهمتي . الحجر نفسه بات طوع أمري . تابعت التحديق . في السابع والعشرين من رمضان ، بلغت أوج قوتي ، وتململت الحية في مكانها قليلاً وانسابت إلى الأرض . نهضت إليها وأخذت أعزّم ، وأشرت إليها أن اتبعيني . تبعتني مثل خروف مدلّل . دخلت دارنا . . . سرت إلى فوهة السرداب الروماني الذي كنّا نلعب فيه ونحن صغار . نزلت الدّرج وهي ورائي . وصلت إلى قعره . أشرت إليها أن تثقب لها قبراً ففعلت ، لكنها استمرت تغرز رأسها في التراب كآلة حفر وأنا أرى إليها . . . ظلّت تثقب حتى وصلت إلى قرن الثور . رأيتها بعيني هاتين تجلس عليه كملكة متوّجة وتنفض عنها الغبار في كبرياء الملكات واستعدّت لقفزة عظيمة . أشرت إليها بيدي أن لا . . . لم تر واندفعت في قوة خارقة بين الكواكب ، وغامت في الأبد الخالد خارج حدود نظري .

نزلت الدرج . كان بي توق إلى الظلام لعلّه يبدّد وحشتي . دعاني إلى

رؤية الثقب الواصل إلى قرن الثور . لم يشعل سراجاً . ولم يوقد ناراً . كان مؤمناً بسراج في قلبه ينير كل ظلمة حتى قتام الروح ... كآباته تتألق ببصيص هادىء ومنير.

- ياسليمان الظلام دامس والدرج قديم وقد نهوي ...

- يهوي الذين يتوكؤون ... قدم الجسور تظلّ ثابته ...

دلفنا درجة درجة . كان يبدو لي أنه يرى في العتمة . ولاحظت في الأوجار التي تملأ الجدران بصيصاً يشبه بصيص سيكارة بعيد ، كأنما في كل وجر جمرة صغيرة ... ترى أتلك عقارب أم حيات سمعت خطونا فخرجت إلى شرفات منازلها كي ترى إلى طارق باب نومها ؟ أم أرواح قديمة قطنت ضيعتنا من قديم الزمان ، ونهدت تشاهد من يعبث بالأبنية التي شادتها فقد يكون من لصوص الآثار ، جاء يسرق كنوزها الخبيئة .

خرجنا من السرداب . قلت له : « استودعك الله . أريد أن أنام . »

قال : « بل أرافقك حتى دارك ! »

- لكنك بحاجة للنوم أيضاً .

- لا أنام قبل طلوع الشمس . أقعد عند الإمام اسماعيل وأشاهدها وهي تصعد قليلاً قليلاً كبرج من لهب . منظرها رائع من الجادّة الشرقية . هل راقبت طلوع الشمس مثلي ؟ هل رأيت الغلالة السوداء الشفافة التي تتشح بها . أنتظر أن تخلع وشاحها وترميه على الأرض فيحرق بناره كل المذنبين عبر التاريخ ويبقى الأنقياء وحدهم على وجه البسيطه .

- كيف يرود عقلك كل هذا الهدم . تركتك عاقلاً فإذا أنت بين بين شديد الوسواس كثير الوهم ... قريباً إلى الجريمة...

- الجريمة ؟

- نعم ؟ كيف تنتظر موت البشر كل صباح ؟ ... كيف تقتل الحكمة ؟ باتت

ديارنا خاوية سكنها جدب أزلي قاتل ... أطفالنا جاعوا ... أنت المسؤول عن الجفاف الذي حاق بآبارنا ... ألم تر إلى الناس كيف ضلّوا الينابيع . كيف حفروا تحت الطبقة التي يستبسل فيها الماء للخروج إلى وجه الأرض كي يصبح شراباً نقياً وكي تمرع بالخضرة وتأوي إلى أغصانها الطيور ... لقد غدا كلّ منّا معولاً لئيماً يحفر الصخر حتى يظهر الصخر الآخر الملطّخ بالعرق دون نقطة تبلّ الرمق . كل هذا لأننا بلا حكمة ... برارينا كلها خالية من الزهور ... جفّ ضرع السماء . باتت بلا غيم ولامطر.

- لكن الحيّه سم وأنا قتلت السّم والموت .

- من قال لك أن الحكمة خالية من السّم والموت ؟ ... لا بدّ من سمّ زعاف ومن موت عظيم كي تمتلىء الآبار ماءً ...

- وأنت ماذا غيّرك ؟ غادرتنا ذكياً تلمع كجوهرة . ورجعت غبيّاً . خفت صوتك وهدأت حدّتك . وفي كلامك فلسفة قنوط ، كأنّ نصفك انهار .

- ماكنت رجعت لولا ظني أن الناس كبروا ، وأن الشجرة التي زرعناها معاً ، حان قطافها ، فإذا بي في صحراء أنوء برائحة جفافها .

- أشجارنا قليلة ونادرة . لكنها عاليه وسامقة ... أمعن النظر تر ما دفعك الظلام عن رؤيته .

- أنت كهذه المدينه مغرور ، نصف معتوه ، يزين لك وجدك بالغياب لأن ترى مالا يوجد ... أنت بلا حكمة لأن الحكمة حضور وأنت غياب ... لقد امّحى وجودك فصرت بخيالاتك وجود سراب لا وجود له .

وهمّ بالذهاب فقلت له :

- قبل أن تذهب قل لي : من أين رائحة الدخان والقهوة في السرداب . هل تسهر هناك كما كانت تفعل أمّك ؟

- لا . أبداً ... تلك رائحتها لم تغادرنا . انقضى على اختفائها أكثر من

عشر سنوات ومازالت الرائحة تعبق في المكان .

ـ لأن السرداب بلا تهوية !

ـ لكن الرائحة تبلى عبر الزمان الطويل ... أظنها تدخّن حتى الآن .

ـ ماذا ؟

ـ تدخن ! فغرت فمي . قلت في نفسي : « لقد جنّ في غيابي سليمان . وأتم حديثة قائلاً :

ـ لقد انصرمت أمّي كما ينصرم النهار ، حين تختفي الشمس ولاتعلم أين اختفت . عيناك تقولان وراء الأفق . والعلم يقول بل دارت الأرض . لكنّ عينيك كانتا تريانها ، ثم الغياب الذي ليس زوالاً ... هكذا ذهبت أمّي . وبقي منها شرارات في أوجار الحائط ، أضأل من أن تنير درب نزول الدرج ...

لم أجد ما أقول . تركني في حيرة لاحدود لها . يبدو لي أن الحكمة لاتخلو أحياناً من الجنون ، ولكنه إلى ذلك يحلم بوجود عالم الخير والانسان الصافي . قلت له : « لم لاتصير مسيحياً ياسليمان ؟ » قال : « لأنهم يصلبونني ! »

ـ لم لا تكتب ياسليمان ؟

ـ سرقوا ريشتي ودواتي وحبري وقالو لي اكتب ... بماذا أكتب ؟

ـ اكتب بالدم ياسليمان ، فلا خير في الكلمات التي لا يصبغها الدم ...

نظر اليّ نظرة لا تخلو من الحقد ، كأني أثرت شجونه الكبرى . وأشاح بيده مودعاً . قال : لقد اقترب طلوع الشمس ! »

وتركتني وحيداً والليل والنعاس وحجراً غادرته الحكمة ، وصورة امرأة تدخن بعد الموت والساحة التي كنت ألعب فيها صغيراً مع سليمان وخطر ببالي الاحتفال بختانه .

أفضل لك أيها القارىء إذا وصل بك الترحال إلى مجيد آباد أن تخلع نعليك . لا لأنك بالوادي المقدس طوى ، وإنما كي لايستهجن حذاءك الحفاة . لا أريد أن أقول كل الناس حفاة في مدينتنا ، وإنما شبه حفاة يلبسون الخفّ صيفاً وشتاء ، وقد اهترأ بعضه ، لا لأنهم يفضلونه مهترئاً ، وإنما لكي يبرزوا سيماء قدرهم .

الثياب الجديدة نادرة ، فالأناقة عندنا للنساء لا للرجال . الثياب الجديده نعتقها قبل أن نلبسها ، فلا بد من أن نتمتّع بمنظرها الجديد ، وهي على مشجب قبل أن نقدم على ارتدائها . ولاتنس أن الحياة لاتغدق علينا كثيراً من خيراتها . ونحن كسالى متبطلون ، نكره العمل ونحبّ الجلسات الطويلة وتبادل النكات وكأس المتة تدور علينا فنتحدث في الأخبار القديمه ونروي شعراً كثيراً عمودياً وحديثاً وعتابا وميجنا ، ويمتعنا الاستمتاع إلى قصص العرب وفرسانهم وشعرائهم . القصائد تدوّخنا من بهجة . وتطربنا أكثر من كل ذلك أخبار العشاق : مجنون ليلى وكثير عزة وابن ذريح وجميل بثينه ، بله خسرو ومجنون إلسا . ونقول بين كأس متة وثان كي نشد الينا المستمعين :فتكم بالسالفه ونستأنف الرواية .

* * *

فتكم بالسالفة :

نمت وأنا أفكّر بسليمان . لابدّ من الاعتراف أنه صار انساناً آخر . لم

يعد الفتى المتبطّل العاشق ، صار مختلفاً . لكن مابوسعي أن أطلق عليه . أهو مجنون ؟ إنه لايخلو من لوثة . لكن أفكار المجنون تنقصها الصلة المنطقية فيما بينها . وسليمان يتكلم من عالم خاصّ به ، له منطق غير الذي أعرفه ، ولو أنه منطق مترابطة نتائجه بمقدماتها .

الأحداث التي رواها لي مستحيلة . لكن الإنسان إذا تنازل عن منطقه وعاش بمنطق سليمان لايجد فيها من غرابة ، فالحية مادامت عيناها تطلق شرراً ليست حجراً وإنما كائن حيّ . أوَلا نرى في الأحلام مثل هذة الأشياء ؟ ثم نستفيق فإذا العالم الذي ننتسب إليه قد مضى مع يقظتنا . وأيهما أقرب للواقع الحلم أم اليقظه ؟ أو ليس سليمان نائماً إبّان اليقظه ؟

لقد ألمّت بسليمان ظروف صعبة جعلت من حياته حلماً ولا أخفي القارىء أني عجبت لما رأيته . كيف لم يمت بعد كل ماعاناه ؟

وأقدّر أننا لن نفهمه ، مالم نتّبع ظروف حياته وعذاباته وأحزانه . ولاننس أيضاً تأثيرالشيخ فقد روى لي سليمان أن الدروس لم تكن دروساً بالمعنى الصحيح وإنما كلمات يطلب من تلميذه حفظها وترديدها في الساعات التي يدعوه فيها للتأمّل .

كان يمسك بيدي سليمان ويردّد كلماته ، وسليمان يردّد معه . وبعد ذلك يبدأ التحديق الطويل ! عينا الشيخ إلى عيني سليمان حتى يصاب بالدوار. كان لايحتمل الدرس في الأسبوع أكثر من مرّة . وفي بعض الجلسات كان لايعرف مايحدث له . يترك يدي الشيخ وينهض فيرقص ويدور حتى يغمى عليه وهو ينشد الدعاء إنشاداً . وإبان ذلك كان يجري التحوّل الكبير في شخصية سليمان .

بات يعاف كل ماتقادم عليه الإنسان من لذّة أو بذخ . أخذ يلبس مايجود عليه به الناس ، ويأكل مايقدمه له معلمه ، وكان دائماً أقل من الكفاف ، فغدا

نحيلاً قريباً إلى الهزال ، مولعاً بالنشيد ، وتحوّلت العتابا عنده من طرب إلى حزن .

عندما رجع إلى القرية استهجن الناس منظره وأحاديثه ، لكنهم لم يسخروا منه خوفاً فعهدهم به شجاعاً وقاسياً ، يرد الإهانة صاعاً بصاعين، وابتعدوا عن عشرته وفضّلوا أن يتعاملوا معه من بعيد . وكأني به ضاق بما عنده من أفكار وحنّ إلى من يفضي بها إليه ، حتى إذا جئت أنا المدينه أفرغ بعض مافي جعبته عندي من الليلة الأولى .

وقادني التفكير في شأنه إلى تساؤلات واستنتاجات عديده ... هل التعذيب في السجن ، هو الذي أدّى به إلى ماهو فيه ؟ أم تراه ورث عن ذويه هذه الغرابه في السلوك . والوراثه تهيمن على بعض عقلنا وطباعنا ، وربما على أقدارنا .

* * *

ولايتم سياق هذه الرواية مالم نتحدث عن أم سليمان وذويها . ولن يقدّرالقارىء مدى جهد الإنسان في بناء مدينتنا العظيمة ... عظيمة ! كيف أفلتت هذه الكلمة من قلمي ؟ لاعظيمة ولا ما يحزنون . إنها المبالغه . قسّم كل أقوالنا على ألف حتى تستطيع فهم مانقوله .

يدّعي سليمان أنّ أجداده من أمراء القلاع الذين حاربوا الصليبيين وهلك منهم ومن جندهمماينوف على مئة ألف (مئة ألف ؟) واختفت آثارهم بعد استرداد صلاح الدين للقدس . وإبان الإحتلال التركي ، أصدر السلطان العثماني مرسوماً ببناء قرية على أطراف الصحراء ، وسمع جدّه بذلك بعد مضيّ أكثر من عشرين سنة لأنه كان فلاّحاً في منطقة نائية ، ولم تكن هنالك صحف . وكان فوق ذلك أمّياً

ـ أي بعد أن وزعت الأرض على القادمين من مختلف المدن والقرى من عشيرته

ولم يبق منها مايضع عليه عمر حصيرة ، جاء إلى جدّي لأن قلعَتي جدودهما كانتا متجاورتين فطلب منه نتفه من أرض داره يقيم عليها . ومن هنا تجددت الصداقة القديمة ، وامتدت العلاقة الجديدة بيننا أكثر من قرن .

أخذ عمر يوسّع نتفته في أناة وصبر يمتد شرقاً وشمالاً قليلاً قليلاً ، إلى أن أصبح صاحب دار طويلة وعريضة . كان سعرها رخيصاً ، حتى إذا ارتفع السعر ندم جدّي على غلطته بعد فوات الأوان . وفضّل الآ'يثير المسألة كي لايفسد علائق الجيرة

ورأى عمر الخير على « عتبة داره » . صار صاحب أغنام فقد عادت العشيرة إلى التقاليد العتيقة من تربية ماشية وابتغاء مرعى . ترحل إلى البادية في الربيع وترجع إلى القرية لجني الحصاد . وجاءه طفل سماه أحمد ، أتم به الله عليه نعمته .

وظهرت على الطفل مآثر الذكاء منذ نعومة أظفاره وبزغ نجمه قبل أن يبلغ، وما أن رشد حتى أدركت القرية أن مطامحه بعيدة المدى وأن شيئاً « لايرد رأسه » إذا عزم على أمر . وذهب المتقولون ـ الذين يثبت للناس أنهم على حق ـ إلى أن غروره يزيّن له أن يصير مختاراً . وكان هذا المركز محطّ كل انظار الشباب الأقوياء . قامت من أجله معارك بالعصا بين العائلات لأن استخدام السلاح في النزاعات بين أبناء العشيرة الواحدة كان ممنوعاً تبعاً للتقاليد .

* * *

ازدادت القرية أهمية مع مر الزمن ... صار عدد سكانها يربو على الأربعمائة وبنيت فيها معالم جديدة بالدهشه : قباب أدريس التي شيدّها من أحسن أنواع اللّبن صارت (أجمل من قصر يلدذ !) يزورها بين الحين والحين مشايخ البدو العظام ... صحيح أنهم يحتقرون الفلاحه والفلاحين ، لكنهم يهابونهم . سكان ضيعتنا يستبسلون في القتال وإذا صدف ومرّ أحدهم

بمضارب أولئك ، ذبحوا خروفاً ، ذبيحة تليق بمقامه .

وبلغت أوج السماء حين صدر مرسوم شاهاني بتسميتها ناحية وجاء موظف تركي عريض المنكبين ، مفتول الشارب .

تصرّفات أحمد لم تخف على أبيه ، ولا على وجوه الناحية . على العكس أثارت فضولهم وحذرهم فهو منذ الصغر يتطلّع إلى أمر ذي شأن .

سافر إلى حمص ، وغاب اسبوعاً متذرعاً ببيع خرافه في سوقها ورجع وقد تغيّر هندامه من أوله إلى آخره . اشترى كوفية مفضضة ذات عريجتين وعقالاً جديداً من المرعز وعباءة من وبر ناعم ، يزين صدرها قصب ينوف عرضه على ثلاثة أصابع .

في اليوم الثاني لعودته من رحلته تلك ، لبس حلته الجديدة وذهب إلى مدير الناحية بكل جرأة ، وهنأه بالقدوم ودعاه لتناول الغذاء يوم الجمعة ودعا وجوه القرية ، بل قل القرية جميعاً . وذبحت الخراف دون حساب . مدير الناحية نفسه أمسك بيده ولولا ذلك ماكان يعرف سوى الله عدد الخراف التي نوى الإطاحة بها .

وجلس المدير وأحاط به الوجوه ، وأمام كل منهم رأس خروف وجثته ، وبعد أن شبعوا صاح مناد ببقية الناس : « عالعيش ياجوعان ! » فاندفع سكان القرية ومنهم من حمد الله وشكره وجأر بالدعاء لأحمد ومنهم من أكل دون أن يعلن تأييده وقيل أن بعضاً لعن أباه قبل أن ينتهي من الطعام مئة مرة . وحين انتهى الآكلون أعلن أحمد أنه سوف يرمي خارج السور مافاض كي تأكل الوحوش على(كيس) المدير حضرتلري .

لما وصل المدير إلى بيته ، وجد في الباحة عشرة خراف هدية وأكياساً من برغل وطحين وحمص وعدس وسواها ، ذلك أنه غريب ، جديد على الناحية ولاتبيح له أعباء الحكم أن يتفرّغ لشراء المؤونه .

نتيجة هذا البذخ كانت مرتقبة ، فلقد صدر قرار المدير بتعيين أحمد مختاراً وأرسل إلى المحافظ كتاباً للموافقة فرجع بسرعة لم تعهدها القرارات القرويّة . وربما يحدس القارىء أن خرافاً أخرى سلكت طريقها . إلى الغرب. لا أعني باتجاه البحر فالخراف قلّما تبتلّ بمائه .

* * *

بلغ التفاهم أوجه بين المدير والمختار ، وكثرت زيارات أبناء القرى المجاورة والبدو الذين يرتادون مراعينا أثناء الربيع . وتنبأ الشيوخ في سهرات القهوة المرّة أن ناحيتهم سوف تصبح أهم من اسطنبول (بعد كم سنة؟)

ونشأت مكاتب حقيقية في العاصمة المقبلة ، صار فيها ديوان لتسجيل النفوس وشرطة تحفظ الأمن ، وصار متوقعاً وصول قاضي صلح لفضّ النزاعات إن وجدت .

كل الوافدين كانوا يعرفون أن يد أحمد طولى لدى المدير وبالغ أصدقاؤه فزعموا أنها كذلك لدى الصدر الأعظم ، بل والسلطان . وذلك أمر مخيف فالطامحون بزعامة القرية حزنوا لخسوف كواكبهم ، وعلموا أن وجاهتهم لم تأفل فحسب ... لقد انتهت .

كل اصحاب القضايا القروية والبدوية ، وبخاصة ما استعصى منها على الحلّ صاروا روّاد بيت أحمد . يحلفون برأسه ويقدّمون له الهدايا من الخراف حتى كيس القمح وفي كثير من الأحيان ليرة ذهبية ، يدسّها المحتاج تحت المخدّه التي يتكىء عليها وهو أمام منقل القهوة المرّة يناولها لضيوفه الكرام .

لكن أحداً لم يعرف النسبة التي يتقاضاها المدير ولو أن زوجته صارت محمّلة بالذهب .

أمّا أحمد فقد قرر بناء قصر ... نعم قصر لم تشهد المدينة ولاقريتنا قصراً منيعاً مثله . جاءنا بالمعماريين من المدن . الفلاحون يبنون بيوتاً من لبن فحسب،

بلا تنسيق ولا أناقة ، لاتعجب أحمد ، ولو أنه أصغى ووافق على الإقتراحات الوجيهة من اسطبل لخيوله في الطابق الأرضي ، إلى تزيين النوافذ والأبواب بالحجارة البيضاء . ودخل الإسمنت للمرة الأولى إلى قريتنا حين «عدّس» أرض الصالة الكبرى ... ولكم تباهى وتفاخر حين قال لضيوف القهوة المرة إن سطح الأرضيه لاخلل فيه ، قاس دقة توازنه بميزان الزئبق .

وفي إحدى نوبات الحماس أعلن أن دخوله القصر سوف يكون يوماً مشهوداً...سوف يتزوج بإثنتين دفعة واحدة . وعجب السامرون فلم يحدث في التاريخ أن وافقت إمرأتان على الزواج من رجل في ليلة واحدة . لكن أحمد يطوّع المستحيل . وأي أب في الناحية والجوار يرفض تزويجه بابنته ؟ لقد غدت رغباته أوامر شاهانية.

وجد اثنتين لايدري أحد من منهما تفوق الثانية بالجمال : نفس القامة والاعتدال نفسه ، الخصر نفسه وربما العنق لولا خلاف ليس بذي شأن : الأولى سمراء والثانية شقراء . دخلتا في الساعة نفسها إلى القصر ، نفس الأبهه والبذخ. «شنشلهما ذهباً» أما الحرير والخز فقد احتارت أنوال حمص كيف ترضيه .

سبعة أيام وسبع ليال والدبكة عامرة ، والطبخ والنفخ قائمان ، وذبح الخراف على قدم وساق . كرهت الناحية أكل اللحم ، وتعبت الأقدام من الخبط وكاد يخرس الشاعر سطام من طول مالعلعت حنجرته بالعتابا والميجنا ، والنفخ في القصبه .

وعدل بين الضرتين في كل مايتعلّق بشؤون الزواج . لكنه واجه مشكلة حلّها عسير . في القصر غرف أربعة . سكنت زوجتاه اثنتين وكان ينام هو ليلة هنا وليلة هناك . وظلّت الغرفتان الباقيتان لم يفتح بابهما منذ حفلة الإفتتاح . لم يخصص غرفة للطعام لأن الصالة أكثر اتساعاً . ولاغرفة للضيوف ، لأن هؤلاء

يأكلون ويشربون وينامون في بيت الضيافه القائم شرقي القصر . وكان يتحسّر من أنه يتنعّم بنصف القصر ، ولايصيب من النصف الثاني شيئاً . لكن شحود عالم الجفر والد ليلة وجد له تعليلاً ماكان أحمد ليدركه لولاه . قال : «نصيبك أربع نساء ولذلك بنيت قصراً بأربع غرف وسوف تتزوج من اثنتين أخريين شئت أم أبيت .»

أسعدته هذه الفكرة الرائعة ، وضرب كفاً بكفّ متحسّراً لأنه لم يأت بأربع نساء لا اثنتين يوم الاحتفال العظيم . ولم يجد أية صعوبة في انتقاء اثنتين أخريين ، أتم خطبتهما والزواج منهما بمدة وجيزة . لكنه لم يدخلهما معاً إلى القصر . جعل الفرق بين مجيئهما إلى حرمه أسبوعاً ولكل منهما عرساً لائقاً.

حين اكتمل النصاب ابتدع خطة جديدة لنومه . تنسجم مع ما آلت إليه أمور الدار .

قرّر لكل من زوجاته سهرة ، وجعل فراشه ونومه في الصالة . يخبر من يريدها لليلته بأمر اختياره لها تماماً كما كان يفعل السلطان . وتبارت النساء الأربع في تجميل مرقده حتى صار أيضاً شبيهاً بسرير السلطان .

لما حدّث ضيوفه المسائيين فوصف لهم سريره ـ لأن دخول القصر بات ممنوعاً على غير المحرم ـ تعوذ شحود وحوقل ولاح برأسه حزيناً لأن «العزّ» حينما يبلغ هذا المدى تقرع الباب نذر النهاية .

غير أن العزّ دام وأطفلت النساء الأربع أكثر من مرّة والثروة ازدادت . صحيح أن مدير الناحية تبدّل ، لكن المديرين جميعاً يسلكون الطريق نفسه ، لولا اختلاف بسيط في تقويم نسبة الدخل لكل منهما .

كان يذهب أحمد إلى أي مدير جديد زائراً ، معلناً ولاءه . وصار المديرون يردون له الزيارة كي يعلنوا له ـ لا أقول ولاءهم ـ بل محبّتهم وتقديرهم لكرمه . وكانوا كلما جاؤوه في مناسبة ما ـ كالعيد مثلاً ـ خرجوا

ظافرين بهدية لطيفة .

وأصبح مجيء مدير جديد إليه للزيارة سنّة ، أو نقله ، لأنّ صلاته بلغت الوالي نفسه وصار يغني إذا شاء ويفقر إذا شاء . وكثر كارهوه ، ولكن من يجرؤ على عدائه . فضّلوا الرياء والمداهنه على إعلان الخصام .

ثم ولدت له فاطمة . يوم ميلادها ثار عجاج يعمي الأبصار ، وكسف القمر ، فلم يأبه أحد لذلك سوى شحود . وبعد ستة شهور برزت ثنيتها اللبنية السفلى الأولى وخسفت الشمس .

لم يكن الأمر إذن بسيطاً أو عادياً . وعجب شحود للصلة بين تطور جسد هذه البنية وحركة الأفلاك فعمد إلى «جفره ودليلته» علّه يكشف الصلة . وبعد أن قلب صحائف كثيرة ، وهو مايني يفغر فاه بين فقرة وفقرة وقال :« نجنا يارب!»

لم يعر أحمد كثير انتباه لتنبؤات شحود . لأن هذا كان يكره البنات وينادي بوأدهن جريا على سنّة الجاهلية . وكان يتطير منهنّ ، إذا تصبّح بإحداهن صلّى ركعتين كي يجلو سواد يومه . يفضّل أن يتصبّح بفحل .

ـ نجّنا ياربّ !

ـ ممّ ... من فاطمة ؟ إنها زمرّدة تجلو السواد وتزغرد كأغنية طائشة . والجمال لايكون نحساً عند شحّود . الجمال هو السّعد نفسه .كان عليه إذن أن يغيّر موقفه من ظواهر الطبيعة أو تفسيره للجمال ، وقدرته على تحويل الشرّ إلى خير ... يكفي عند شحّود ، أن يطلّ عليك وجه صبوح حتّى يتغيّر قدر يومك. صياغة الحدث مهما كان تافهاً لاصدفة فيه ، إنه تقدير وحساب وتقرير من قوى لاندركها . وارتباط حدث بآخر ليس اعتباطاً . ورجع إلى تفسير محي الدين بن العربي وتوقف عند النفس الكلية والنفس الجزئية .

أليست النفس الجزئية بعضاً من النفس الكلية ؟ بعضا منها أو إحدى

تجلياتها . النفس الجزئية إذن هي براءة وطهر مادامت إلهية . إنها تعبير عن النفس الكلية ، رسالة منها إلى العالم المحسوس وما فاطمة إلا نذير . إنها ليست سبب الأحداث وإنما مرآتها فليتعظ من شاء ... عند ذلك ارتاح شحّود وكأنه وقّع هدنة مع فاطمة الجميلة ، بل مع الجمال نفسه...

* * *

تجاوز سكان الناحية الألف وازدادت ثروة أحمد تبعاً لعدد السكّان واكتشف الحاج نايف وجود الماء في آثار الأقنية الرومانية وأخذت المعاول تحفر الأرض وتمنح التربة والبشر ماءً قراحاً وزها ظاهر القرية بالشجر وبلغت مواسم أحمد من الكثرة مالا يحصيه إلا الله ... غير أنّ كل مايجنيه يذهب هباءً . لولا حليّ نسائه لعُدّ من الفقراء . بالرغم من ذلك لم يجع في الناحية إنسان مادام حيّاً . كان لايتوانى عن إرسال المؤونه والثياب إلى المحتاج . يرسل أعوانه ، كي يتحروا أحوال الناس فيرفدهم عند الضرورة .

عندما ولد كان أبوه فقيراً فعرف الفاقة وأقسم ، وهو طفل ، على ألا يدع على الأرض كلها فقيراً ... طموح متهوّر لم يستطع أن يفي به تماماً . لكن ناحيتنا نعمت بجوده وأمن الناس قليلاً على غدهم .

أما المتنفذون فكانت تقلقهم هذة التصرّفات ؛ لأنه أزال في المجتمع حكمة وجودهم .

أمر كان يؤرقه كثيراً : عدد البنات من نسله كان أكثر من الصبيان ، وتلك مذلة في ضيعة ، ترى في الأبناء الذكور الثروة الوحيدة . ليس عندهم من متاع الدنيا شيء سواها من ثروة . كان إذا ذكر الأولاد في مجلس غضّ الطرف منكسراً ، متحسراً . رزق صبيّين ... صبييّن فقط . مع أنهم عند جيرانه «ينغلون» كالدّود من الأرض .

وتجاوزت سلطة أحمد الحدود القروية . امتدّت من الجبل حتى السهل،

أعني من جبال البلعاس حتى سهل حماة . والقرويون كانوا يعنون بتعبير « من السهل إلى الجبل » أنّه بلغ حولاً لاحول مثله ، يكاد يضاهي السلطان بقوّته ، ولو أن القرى بين الجبل والسهل لم تكن أكثر من عشر ، متفرّقة ، قليلة السكّان والرزق .

وأحس الزعماء بالخطر على وجاهتهم ومصالحهم وأرى أنّه لابد لي من تفسير بعض الكلمات في هذا السياق فالزعيم هو من « التمّ »حوله عشرة أشخاص يضربون بسيفه ، ويأكلو ن أحياناً على سفرته . يشربون قهوته المرّة ، ويدافعون عنه إن خيراً وإن شراً .

عندما وضع أحمد في جيبه مدير الناحية ، وضع كل المصالح في الجيب الأخرى . وبات يتقاضى أجراً معلوماً عن كل قضيّة يتدخل من أجل حلّها.

كان تأسيس المصرف الزراعي حدثاً هاماً فاق حدود تصوّر الفلاحين وفسّر إنشاؤه تفسيرات عديدة ، أولها أن « الباد شاهم » في اسطمبول علم ، بعد جهل امتد أجيالاً ، بفقر الناس وأراد أن يوزع عليهم بعض مايملك وهكذا لله بالله . وراجت إشاعة لم يختلف اثنان على صحتها ، ذهبت شاوا بعيداً في تثبيت الناس على معتقدهم .

حين عرف أحد المشايخ (لكن من هو ؟ ... لايدرى أحد) بسوء الأحوال في قريتنا ، دفعه وجدانه إلى أن يسافر إلى عاصمة الامبراطورية ، على ما في ذلك السفر من وعثاء . ولقد كان شيخاً وقوراً لايستطيع الإنسان أن ينظر إلى عينيه لما فيهما من نور صعد من القلب .

ذهب أوّل ماذهب إلى قصر يلدز طلب مقابلة الخليفه . ومن عادة الحجّاب أن يردوا الناس عن الباب . لكن هيبة الشيخ أكرهتهم على التردّد . وفيما هم يتساءلون عما يفعلون أتاهم الياور فقال : «أدخلوا الشيخ!»

ذهلوا كيف عرف بمقدمه صاحب الجلاله . غير أن شحوداً ابتسم مستهزئاً بجهل الجهلة . قال لهم : « إن أصحاب النور ينشرون حولهم ضياءً ينفذ من الجدران ويصل إلى الذي يريدون هدايته . »

ولقد صيغت حول تلك المقابلة التي لاندري أن كانت صحيحة أم كاذبة روايات عديدة منها أن الخليفة قام عن عرشه عندما دخل الشيخ وقال له : « أؤمر

يامعلمّي!» فأمر بإنشاء مصرف زراعي في قريتنا ، يعطي المحتاجين من مال السلطان .

قليلون هم الذين عرفوا في تلك الأيام أن خطة الدولة قضت في أن توجد مصارف زراعية في كل نواحي السلطنه . فلم تكن هنالك إذاعة أو صحافة ، ولو وجدت لتحدثت في هذا الشأن وفي أمورأخرى مثل مرض مراد الشاهاني الذي ظنّه عبدالحميد جنوناً ، فتولّى الخلافه في مكانه ... ترى هل حدثت هزّة في عقل السلطان من مقابلة الشيخ الذي لم يقل لنا أحد اسمه ؟

* * *

ولم تكن كلمة حزب تعني ماتعنيه اليوم . فقد اقتصرت جماهيره على عدد يستهان به جدّاً . أما العقيدة فهي خلاف حول الزعامة وحقوقها . من هو صاحب النفوذ عند أبناء الحكومة من الحارسين الليليّين اللذين يحميان أمن المواطنين وهم نيام ، إلى الدرك الذين يقومون بجولات راكبين على خيلهم من قرية إلى قرية ، وفي كل قرية تذبح لهم ذبيحة من دجاج أو غنم حسب قيمة (الوجه) الذي يستقبلهم .

أما صاحب النفوذ الأعلى فكان أحمد .كسف كل الشموس . متى أراد جعل النمر عند مدير الناحية جرواً قليل الاهمية . وخاف عليه شحود . ماكان يريد له كل هذا الطغيان .

قال له : يكفيك أنك الأول . دع المقام الثاني لسواك .

ـ هذة المزبلة لاتحتمل ديكين !

ـ بل ديكين وأكثر إذا أحببت السلامة!

ـ ألم تر إلى الديك كيف يحسّ بالمهانه إذا شاركه في دجاجاته آخر ؟ أموت إذا برز في الناحية أحد سواي ...

ـ تتكلم لغة الراحلين ، الذين يعدّون حفرة موتهم بأيديهم .

كان حدس شحود يذهب به بعيداً . غير أن أحمد ضحك منه ، ولو أنّه لم يستهتر بما قاله . كان مؤمناً بحكمته وبعد نظره .

وأراد ألا يثير ضجّة يقدّر الناس منها مدى تخوّفه فدعا إليه حارسي الضيعة وطلب إليهما أن يحرسا قصره جيداً وأخذ يدفع لهما مايعادل راتبهما ويزيد مايرسله لهما في المواسم من قمح وذرة ولبن ، فاهتمّا بالأمر كثيراً ، وصار عملهما كله حراسة أحمد فالضيعة خالية من اللصوص . لا أحد فيها يسرق أحداً .

فتح الحارسان عيونهما جيّداً ، فلا تفلت منهما أية حركة في الجوار . لكن الحزم في ضيعتنا يتلاشى مع الزمن ، مهما كان عنيداً . بدءا يتناوبان الحراسة ، ينام أحدهما فيما يسهر زميله خلافا لما كان يفعلانه في البدء . ثم تراخت الهمة . فما من بادرة تنمّ عن الشرّ . صارا ينامان أكثر الليل ، ويستيقظان في الفترات التي قد يخطر فيها للّصوص أو القتلة أن يخدّشوا سلام الناحية المطمئن .

لم يكن في الضيعة لصوص ، لأنه لم يكن هنالك ما يسرق . أما الزعماء فقد وجدوا من يتطوّع للقتل ، لقاء أجر لانظنّه كبيراً.

* * *

ذات صباح اختلف قليلاً عن سواه . نام كلّ من في البلد أكثر من عادته وبخاصة الحارسان وأحمد ، ذلك أنّ حدثاً هامّاً شغل سكّان القصر ، فقد أخبرت فاطمة أمّها أنها صارت في حكم النساء ، فقد جاءتها العادة الشهرية ، وأنبأت الأم بذلك زوجها . لم يفرح . أحسّ أن شيئاً ما مبالغاً في الخفاء هصر رقبته . قال لزوجته سلمى : « إني متعب حتى العياء ؛ كلّ شيء يبدو لي ظلاماً.»

ـ لماذا لاترى الطبيب ؟

ـ لست مريضاً ... إن ما يقبض على تلابيبي هو هَمّ عجيب جاءني دون انتظار ... وضعت يدها على رأسه وقالت : « حرارتك مرتفعة! »
ـ لا يا امرأة . إن ما أحسّ به شيء آخر .

ورقد تلك الليلة ، والظلمة تسد عليه كل سبل الضياء .

عند الفجر استفاقت زوجته ، وخرجت من غرفتها إلى البهو كي تطمئن عليه . وتوقفت في نصف الطريق إلى فراشه كأنما سقطت عليها صاعقة ـ كان رأسه مفصولاً عن جسده ، وقد غرق في مستنقع من الدم . صاحت من وجع، فاستيقظ كل من في البيت .

وخرجت فاطمة من غرفتها . والوسن يرقد في شعرها الطويل .

عندما رأت ارتعش جسدها كأنما أصابته صدمة كهربائية وتلفتت يمنه ويسرة . أرادت أن تقول شيئاً أو تصيح ، لكن لتختفي الكلام والصياح . حلقها أغلق نفسه على الصوت . وأحسّت اضطراباً في القلب ، ولقمة زقوم تسدّ حنجرتها واتكأت على باب حجرتها تحدّق إلى الجسد الذي كانت تأنس إلى حنانه فإذا هو قد مضى . وألمّ بها مايشبه التنويم فهي لاتدري ماتفعل ، ولاتستطيع أن تدرك ماحصل ، واتجهت إلى باب القصر دون أن يندّ عنها شيء وهبطت الدرج ، فطارت حصاة صغيرة من جدار القصر أصابت ظهرها وكأنها تطردها من جنّتها ،كأن جنياً قذف بها . وروى الرواة أن الجنّ سكنت قريتنا ولم تبرحها منذ حادثة القتل تلك .

أخذت فاطمة تنزل درجة درجة ، وهي لا تنتبه للتغير المريب الذي طرأ عليها . أوّل ما فكرت به ثوب الحداد الذي يجب أن ترتديه ، ولكن قدرة عجيبة غيرت كل معالمها فجعلتها كلّها حداداً . قبل أن تصل إلى أرض الدار أخذ شعرها الأشقر يتحوّل درجة درجة إلى اسود قاتم السواد . كأنها تنحدر من أفق أعلى إلى أفق أدنى .

جلدها اكمّد من حنق فغدا ضارباً للسمرة ، وظلّت خلال كل حياتها تنزل حتى وصلت إلى هوةٍ غورها بعيد ، سوداء كليل شعرها .

عيناها وحدهما ظلتا خضراوين ، فيهما شجىً أبدي لايزول . وذهبت إلى المضافه حيث يسكن أخوها ، وجلست إلى منقل القهوة وماتزال جامدة شبه معتوهة . فسكبت فنجاناً وشربت ، وطلبت من زوجة أخيها لفيفة فدخّنت. وفوجئت الزوجة بسلوكها فأيقظت زوجها لعلّه يدرك ماخفي عليها من شأن أخته . وتساءلت إن كان أفقدها صوابها بلوغها مبلغ النساء .

كان أوّل ما وقعت عليه عين الأخ هو اللفيفة . سألها : «تدخنين؟»

ـ نعم !

ـ منذ متى ؟

ـ منذ الآن وحتّى الموت ...

ـ مابك ؟

ـ لاشيء! ... ذهب أبوك ... رحل ...

ـ إلى أين؟

ـ لم يقل لي ... بهت فصاح يقول : « دعيني أفهم . ما الأمر ؟ »

ـ قلت لك رحل أبوك .

ـ منذ متى ؟

ـ الوقت مجهول ، لايعرفه سوى القتلة ...

صاح : « القتلة ؟ »

ـ نعم !

وخرج يعدو إلى القصر ...

* * *

لم تكن الجنازة مهيبة .كانت خائفة حتى الفرار . الذين أرادوا الإشتراك

بالتشييع خافوا على رقابهم فلم يأت إلا المغامرون ، لكنهم لم ينادوا بالثأر . سار في الطليعة حسن ابن القتيل ، صامتاً ، يجهد في أن يخفي دموعه ، وسرت بين الجمع الصغير وشوشات تسأل : « ترى من قتله ؟»

إصبع الإتهام لم تشر إلى أحد لأن الضيعة لم تألف الجريمة ، ولا خطر ببالها أن يؤدي صراع النفوذ إلى الدم . كانت أحلام المتنفذين لا تخرج عن حدودها وهي ضيقة لا تقوى على ثقل الجريمة . لكن فكرة الثأر كانت تشغل ذهن حسن بالقدر الذي تشغل فيه عقل فاطمة .

عندما انتهى من الدفن والتعزية . رجع إلى البيت ومعه بعض أصدقاء أبيه الحميمين ، فوجد أخته مازالت تدخن وتشرب القهوة ودخل فلم تنتبه إليه وإلى من معه فأدرك أن شيئاً ما قد انهدم في داخلها وألاّ أمل في رأبه .

قال لها : « ألا تذهبين إلى الداخل ؟ معي الرجال . »

قالت : « بتّ منذ الآن رجلاً ... لقد أحسن أبي إذ علّمني إطلاق الرصاص . »

لم يحر جوابا لأن الوقت لا يجيز له أن يكون قاسياً مع أهله ... قالت: «من القاتل ؟»

ـ إن أحداً لمّا يعرف . لم تجد الشرطة أي أثر . كأن القتلة دخلوا وخرجوا بلا أقدام . كأنهم لم يلمسوا شيئاً بأيديهم . جثة القتيل نفسها ليس عليها أي أثر .

ـ والثأر ؟

ـ يجب أن نعرف القاتل أوّلاً.

استأذن القارىء قبل الدخول في هذا الفصل ، فأتوقف قليلاً عن السرد لأعرّف بعلاقتي بمجيد اباد .

ولدت فيها عندما بدأت تكتشف أن مستقبلها غامض ، وأنها ربما تكون دون مستقبل . ولقد أجهد أعصابها هذا الاكتشاف اليائس ، فتوطدت الصلة بينها وبين أحزاني . ومنذئذ أحملها معي في حقيبة أسفاري . لم تفارقني لحظه واحدة . كانت مع بكائي وضحكي ، آمالي وخيباتي . اقتسمنا بالتساوي نظرتنا إلى الحاضر والمستقبل ووقعنا معاً في وهدة قنوط لايعرف النور ولا يدرك أشعة الأمل .

ومكنني ذلك من استشرافي على آفاق غريبة : على رفاق الأسى الممضّ والفرح المريض .

لقد رأيت الأشياء مقلوبة : أدار لي القمر ظهره ، فلا أرى وجهه وكذلك الشمس . أدفأ حين يجب أن أرتعد برداً ، وينفذ الصقيع إلى مسام القلب حين يتبدّى إلى من يراني أن حرارة الجو ترهقني بارتفاعها .

كأن مدينتي مزمعه دائماً على رحيل إلى جهات الدنيا الأربع . تغري أبناءها بالهجرة . تجدهم أنّى حللت كمزق ثوب اهترأ وفي عيونهم دمعة حنين للعودة إلى ترابنا البخيل . كلنا متعلق بها . يحب الرضاع من ثديها رغم أننا كبرنا ولات ساعة رضاع .

قد تظنّون رحيل شبابها شبيهاً برحيل سليمان عندما كان يبحث عن

المعرفة . لا ! إنه مختلف ... من أجل لقمة الخبز يرحلون ، ويعودون بعد أن تضوّروا جوعاً . لم يغنهم الإغتراب ولم يفقرهم زيادة على فقرهم ، لكنّه فتح عيونهم على حقيقة مصيرية وهي أنّ النحس لامنجاة منه .

صحيح أن القنوط كان من أسباب رحلة سليمان ، ولو أنّه لم يكن السبب كلّه . كان يائساً من كل شيء ، لايجد كوّة نور تبدّد ظلام قلبه ، فنهد إلى المشايخ لعلّهم يعلمونه الرضى والقبول بما قدره القدر .

وكذلك كانت فاطمة . يئست من معرفة قاتل أبيها وعمّر السواد قلبها وعينيها وانقضت سنون وهي على ذلك ، حتى لقد أعلنت على الملأ أنها لن تتزوّج إلاّ من يكتشف القتلة . وجدّ الطامعون بها بالبحث . لكن من بوسعه أن يكتشف مجهولاً دون أثر .

إلى أن جاءها صالح الباشا وهو الأوسع حيلة بين شباب الضيعة . قال لها: «عرفت القاتل .»

قالت : من ؟

قال : لن أنبئك حتى توافقي !

- أنا لك إن كنت عرفته !

- مدير الناحية التركي الذي سافر بعد موت أبيك .

- كان صديقه ...

- صحيح ، لكنهما اختلفا على صفقة ...

- من أين عرفت ؟

- من قائد الدرك ، فقد رشوته بعشر ليرات ذهبية ...

وذهب أخوها إلى تركيا كي يأخذ بالثأر . بقي فيها سنتين لم يستطع خلالهما رغم ما بذل من جهد لمعرفة مكان القاتل . الدولة نفسها لم تعرف. والله وحده يعرف كم دفع هنا وهناك دون طائل . وأنفق كل ماكان معه فرجع

إلى الضيعة ملوماً محسوراً .

في تلك الأثناء ولد لفاطمة طفل سمته سليمان ...

* * *

غدت ، في غياب حسن ، مجيد آباد قضاءً ولو أن عاداتها لم تتغيّر . التجارة بالزاد وكل ماله علاقة بالطعام عيب لايقلّ عن السرقه أو الزنا ؛ غير أن صالحاً كان مكيافيلياً لا تعنيه التقاليد ، يطلق حتى على النبيل منها صفة البائدة .

وضع هدفاً له منذ أن نشأ ، أن يكون من سراة الضيعة ، دون النظر الى الوسائل وقيمتها المعنوية . وافتتح له دكاناً ، وأخذ يدرس احتياجات المنطقة وسافر إلى حماة وحمص . تغرّب عن القرية أكثر من شهرين ، وهو يلاحظ مايرى ، فاهتدى بعد البحث إلى أنّ مدينته الناشئة لاتعرف شيئاً عن المخللات، فاشتغل في حمص عند بائع لها وتعلّم منه صناعتها في مدة وجيزة .

ورجع من ثم إلى مسقط رأسه في عربة محملة بالجرار كبيرها والمتوسط والصغير فضحك منه من ضحك ساخراً . والحقّ أن منظر صالح لم يكن ينبىء عن الذكاء . على العكس كلّ ملامحه كانت تنطق بالغباء وتدفع إلى السخرية، لولا أنّه أثبت فيما بعد أن مظهره بعيد عن التعبير عن حقيقة ذكائه. وأعطي الدليل على ذلك حينما أخذ يروّج لبضاعته الجديده .

انتهز فرصة وليمة زفاف عند الجيران فأرسل لهم سطلاً مخلّلاً هدية ، أكلها الضيوف مع البرغل واللحم بإعجاب شديد . وما ترك بعد ذلك وليمة إلا وأغدق عليها من هداياه ، حتى أصبح انتاجه زينه السماط في الضيعة ، وكثر زبائنه وضرب مثلاً للبضاعة الطيبته . وكان ما يني يجوّدها كلما ازداد زبائنه وكثر ماله .

وصار يهوى الذهب ويعشق زينته ، فلا يرى إلاّ ويده في جيبه تداعب

ليرتين أو ثلاثاً ذهباً وهو يصغي في صمتٍ خاشع . وصنع مخبأً في سرداب داره ، كان يجيئه ليلاً فيعدّها كل مساء وهو يردّد على مسمعها لهفته في كلمات شعرية ولهاث محبّ . ثم يعيدها إلى مكانها ، وأقسم أن لن يصرف منها شيئاً إلا عند الضرورة القصوى ، ويكتفي بالعيش على دخل الدكان اليومي مهما قلّ شأنه .

يوم خطبته ثم يوم زواجه كانا الاستثناء الوحيد . فقد نزل إلى السرداب كذاهب إلى معركة حرب وأخرج من الليرات ما خطف بصر فاطمة وبصر أهلها وآلى على نفسه ألا يعاود هذا البذخ . إلا حين يتزوج أبناؤه .

* * *

قالت في نفسها فاطمة : «إبني سوف يأخذ بالثأر»

وأرجأت الإنتقام الى أن يكبر . واعتبرت أن أخاها وزوجها غير كفؤين لهذا الأمر العظيم . وأخذت ترضع إبنها حليب الضغينة وشهوة الدم ... وظهرت عليه ميول الشرّ منذ كنّا أطفالاً في الحيّ . أبوه نفسه كان يرعى هذه النزعه دون أن يدري .

ذات يوم عثر بصحن فكسره ، فصاحت أمّه غضبى . أما الأب فقال لها: «اسكتي ياامرأه . الحمد لله أن صار لنا ولد يكسر الأشياء» وذهب فاشترى له دزينة صحون ووضعها على الأرض ، وأخذ يشجّعه فيصفّق ويفرح كلما كسر صحناً ويصيح : « دسه . إجعله مثل الملح . » ورأت الأم أن هذا شيء مسلّ فشاركت زوجها فرحه .

حتى إذا كبرنا قليلاً وصرنا نلعب بالدحل على المقبرة ، ملأ له أبوه جيبه منها ،كي يتسلّى معنا في رفقة موتى القبور . وكنّا نحن الفقراء المهرة باللعبة نرابط منذ الصباح الباكر والسعيد السعيد منا ، كان الذي ينتقيه سليمان لأنه غنيمة سهلة . وكنا نتحاشى غضبه لأنه كان يده والضرب . شجّ أكثر من

واحد منّا . وكادت تؤدي الأمور إلى شجارات عائلية ، لولا أن صالح الباشا كان يبادر إلى حل الموضوع بدراهمه .

أما يوم ختانه . فقد كان حدثاً مشهوداً ، لم تنسه الضيعة حتى يومنا هذا. أراده صالح يوم فرح عام يشارك فيه الناس جميعاً من الموظف حتى الشحاد .

في تلك الأيام ، لم يكن الموظفون يقبلون دعوة كائن من كان . لابدّ للداعي من بعض الجاه ، والمقام الممتاز بين القرويّين . ولقد شفع لصالح مركز زوجته ابنة أحمد وقصر أبيها المنيف .

نادى المنادي : « اليوم الغدا في الإمام اسماعيل على كيس صالح الباشا . الحاضر يعلم الغائب . »

وأرسل يدعو أبناء الجيران الذين صارو في عمر الختان كي يختتنوا في يوم سليمان ، وجاء حوالي عشره منهم (وموسى المطهّر تقصّ حتى خرج الدم من الغرفه . هكذا قال بعض وبعض قال حتى جرّ الدم الحصا) والزغاريد تملأ الجو ... أمّا عدد الخراف التي ذبحت فلا يعلمه غير الله ... هكذا كان يقول الجيران .

وزيادة في إكرام الموظفين فرش الطريق المؤدي من باب داره إلى مقام الإمام اسماعيل بالسجاد (المسافة تزيد قليلاً على ثلاثين متراً) نعم بالسجّاد والذي لم يكن كلّه عجمياً . استنهض همم الحيّ كله فأرسل كلّ على قدّ حاله من البساط العادي حتى الحصر المهترئة .

وحين خرج القائمقام على رأس الموظفين كان المنظر رائعاً . ثيابهم أكثرها جديد ، بل إن بعضهم كان يضع ربطة عنق . أما الأكل فكان عظيماً. رَأسَ كل موظف سماطاً وفوق البرغل واللحم فتح رأس خروف فكيه بعد أن ذبح على شرف الموظف إياه . وأغدق اللبن والمخللات الرائعة ، فأكل كلّ من في المدينة وماتبقى حُمِلَ في عربة إلى ظاهر البلده كي تأكل « وحوش الفلا »

وعلا صوت الزمر وعمرت الدبكة ، وظلت الأقدام تدق بلاط ساحة جامع الإمام اسماعيل ، وهذة ترنغ مع تلك ، حتى بعد أن غادر الموظفون شاكرين وفي جيب كل منهم علبة حلوى للصغار . امتدت الحفلة حتى غابت الشمس وأمّ سليمان في غاية الإنشراح لكنها أحست ساعة الغروب ، أن يداً تقبض على خناقها كمد ثقيل أطبق على صدرها وأحست أنها تنزل درجة أخرى على درج ماء على سلّم ما لا تدري إلى أي قرار يؤدي بها ، فشربت فنجاناً من القهوة المرة ، ودخنت كثيراً .

* * *

سأل سليمان أمّه : « من قتل جدّي ؟»

ـ مدير الناحية !

ـ أين هو ؟

ـ من يستطيع أن يعرف أين يختفي القتلة ؟

ـ لم تستطيعوا ؟

ـ لا

ـ إذن لماذا الفرح ؟ قالت الأم في نفسها : « هذا الولد لجدّه !» واستبشرت خيراً. استأنف سؤاله: « كيف بوسع القاتل أن يختفي دون أن يدع أثراً ؟»

ـ لأنّه السلطة !

ـ سوف أقتل السلطة ...

ـ أنت لاتستطيع قتلها . تلتحف بها كأنها غطاؤك .

ـ كيف إذن قتل خالي ؟

ـ لم يكن خالك السلطة . كان لها خادماً وظهيراً.

ـ لكن صورته التي لديك أجمل من (الجننار) الذي جاء بالسيارة .

ـ كان جميلاً تعشقه بنات البدو والمدينه . أما هو فكان يعشق المظاهر . حين

استقلّ عن جدّك ، أخذ يولم للدرك والموظفين ، ولايصادق إلاّ أصحاب الجاه في المدن الكبرى . يعينهم إذا أرادوا امتلاك أرض من أملاك الدولة أو سواها، حتى إذا طلب إليه القائمقام - بعد أن أصبحنا قائمقامية - إن يلتحق بالشرطة التي تلاحق الفارين من الجندية - هلّل وكبّر واشترى بزّة أجمل من بزّة القائد واتخذ له حصاناً أصيلاً في الملاحقة . قلت له : « مالك وللفارين ؟»

قال : « إنهم ضد السلطان ! »

قلت : « لأنهم جائعون ...»

فأجاب : لايجوز للجائع أن يفرّ من جيش السلطان .

- السلطان لايطعمهم ولايطعم أبناءهم !

- ذلك صحيح . لكنه لايجيز لهم الهرب من الخدمة.

- ثم يرسلك وأمثالك لقتلهم . أحذّرك ياأخي ؛ بوسعك أن تقهر جيشا ، لكنك لن تستطيع أن تقهر جائعاً. إن الأرض والسماء لتضطربان عندما يجوع إنسان!

قال : هراؤك لايفيد . أنا في خدمة السلطان وسأقطع دابر الفارّين وحين خرج للمرة الأولى لملاحقتهم ،كان بهيّ المنظر كأبناء السلاطين لكنه لم يرجع. قتلوه في غزوته البكر ، لأنها لم تكن غزواً ، بل تنكيلاً .

- وثأره ؟

- يابني لا ثأر لمن يقتله الجائعون . يذهب كما ينطفىء نور عابر . لم يجد عيناً تبكي عليه سوى عيني ... ذهب دون حق في الثأر ... أمّا جدّك فشأنه آخر !

- لم لم تثأر السلطة لخالي ؟

- السلطة فاقدة الذاكرة . تنسى سريعاً . يعنيها دوامها لا موت الآخرين .

* * *

شبّ سليمان وهو حزين ، لأنّه لم يعرف خاله ، ولم يكن له عمّ ولا أبناء عمومة . وضيعتنا تحترم التجمّع القبليّ ، لأنّه يشدّ الحيل في المعارك . ولو أنّ

هذه لاتحدث إلاّ نادراً ، لكنّ البشر عندما يتوقّعون دائماً عدوّاً ما ، فإنه يجيء على غير انتظار . فلا بدّ لك من أن تكون دائماً على أهبة وأن تشرع خنجرك وتلوّح به في الهواء كي تخيف هذا الذي قد يرسله الغيب إليك عدوّاً قد يغتالك . المسدّس ضرورة من ضرورات البيت ، وعليك أن تتدرّب على استعماله أو كان في رجولتك خلل . وعلى هذا شحذ سليمان خنجره منذ الصغر وأطلق رصاصاً كثيراً على أهداف التدريب .

حين دخل المدرسة ، كان رائعاً في بلادته . يوماً يمزّق بنطاله وآخر سترته، وثالثاً يفقد فيه الدفتر أو الكتاب ، ونادراً ماحفظ درساً ، ما عدا الشعر فقد كان يحفظه من القراءة الأولى . ودأب على الذهاب إلى مضافة منصور كي يستمع للرباب والعتابا ، ووفّر مما يعطيه إياه أبوه لمصروفه الشخصي فاشترى رباباً وتعلّم العزف . ثم ملّ المدرسة واكتفى من العلم بالقراءة والكتابة وبعض الحساب وبدأ صغيراً سهرات الشباب ، يعزف لهم فيها ويقول العتابا ارتجالاً مدحاً وهجاءً وغزلاً . و«فقس » العرق في فمه فبات يجيء متأخراً يجرجر خطوه وقد تدلّت في يده الرباب وقوسها في اليد الأخرى . وكثيراً ماكان يقعد على حجر الإمام اسماعيل في آخر الليل حين يعنّ على باله بيت عتابا فيغنيه ، حتى إذا استيقظ النائمون حمدوا له أن أشجاهم بعد منتصف الليل .

كان يمقت النوم والنيام . نسأله : « لماذا يحلو لك الموّال بعد منتصف الليل ياسليمان ؟ »

ـ لأنه الساعة التي تحين فيها يقظتي . فيها وحدها يفارق قلبي النعاس .

ـ أليس عيباً أن تزعج الناس ؟

ـ يجب أن يموت من تزعجه اليقظه !

ـ لوعلمت السلطة بك لسجنتك

ـ تغيب السلطة حين تحين اليقظة !

* * *

حزن صالح الباشا أشد الحزن .كان يريد ابنه أفنديّاً يلبس الطربوش ويخرج من البيت صباحاً إلى السراي كي يمارس فيها وظيفة محترمة . قال له «تعلّم يابنّي . أريد أن تتعلم كثيراً وسوف أرسلك ألى بلاد برّا ، حتى ولو دفعت كل ما أملك . أبعث بك إلى اسطمبول إذا أردت.»

ـ لماذا ؟

ـ كي تصير من السلطة !

ـ لكن أين السلطة ؟...من هي السلطة ؟

ـ هي القوّة التي لاترى ولو أنها تهيمن على أقدارنا . تطعمنا بقدر. وتجيعنا بقدر . ننام فتستيقظ . ونصحو فتهجع . ترفعنا وتنزلنا ... تسجننا ... تقتلنا ... تمنحنا ... تحجب عنّا ...هي القوة ... ألا تريد أن تكون قوياً ؟

ـ لم أفهم !

ـ وأنا لم أفهم يابني . إيّاك أن تفهم ! وانتبه إلى أن الخطر في أن تفهم كثيراً...

ـ مادمت لا أعرف ماهي ، لماذا أجهد نفسي كي أصل إليها . أفضّل أن أشدّ القوس على الوتر حتى ينتهي هذا العالم .

ـ حتى ينتهي العالم ؟

ـ عندما انتهي أنا ، ينتهي العالم يالنسبة إليّ ...

وشطّ الحوار بعيداً عن بدئه وأراد صالح أن يعود إلى الموضوع . قال : «ألا ترى ما أسعد الموظفين . لقد اجتهدوا فنالوا . وأنت يابنيّ اجتهد كي أفرح وأمك بك . أنت سعادتنا .

غير أن سليمان نهض وكأنه لم يسمع شيئاً ، وأوغل في سبل الحيرة والاضطراب . لكن كلام أبيه ظلّ معلقاً إلى رقبته كأنه حجاب يذكّره بما

لايستطيع فعله ويشيع الحزن في نفسه . وهوى الصيد فلا يرى إلاّ وبندقيته على كتفه ذاهباً في رفقة صيادي الحيّ إلى البراري .

وأغضب ذلك الأب ، أمّا الأم فرأت فيه فألاً حسناً . واعتبرت أنه يتدرّب على - إصابة الهدف كي يثأر ذات يوم لقتيلها . ولم يجرؤ الأب على الاحتجاج .

• • •

وخرج ذات يوم سليمان وحيداً للصيد ، وبحث طويلاً فلم يسعفه الحظ بطريدة واشتدّ الحرّ فتفيّأ ظل شجرة وإذا « أبو الحن » أصغر طيور الكره الأرضية وأكثرها بهاءً وفتنة وجاذبية ، يحطّ على شجرة مقابلة ، ويتقافز من غصن إلى غصن في خفّة وهم ، وريشه تتألق الوانه في وهج الشمس . ولايدري سليمان لماذا سدّد أليه ورمى . كأن سحراً جاء من عالم آخر وهيمن عليه ووجّه كل حركاته . وسقط ملك الطيور الصغير مضرّجاً بدمه ، وارتعش ارتعاشات خفيفة، ثم كفّ جناحاه عن الخفقان . وتوقف شيء ما في أعماق سليمان ، وأحسّ كأنه يبدأ رحلة في صحراء .

كان إذا رمى طريدة تألق وجهه ببهجة وأولم لرفاق القنص . أمّا هذة المرّة فقد أحسّ أنه ليس أمام طريدة لم يخطئها ، وإنما أمام الموت نفسه وقد تجمّع في هذا الطائر الذي يكاد يكون لاشيء ، لكنه غدا بعد جريمة القتل أزمة ضارية في الصميم ، آمن معها أنّ فداحة القتل ليست بأهمية القتيل وإنما بأنك سدّدت وتأنيت بالتسديد فقضيت في ذلك زمناً كان يمكن أن يردعك فيه إحساسك بأنك سوف تقتل ، لكن العدوان والهدم استبدّا بك حتى عميت عين بصيرتك .

وتساءل سليمان : ترى أليس لهذا الطائر أهل ؟ أليس له وطن ؟ أبناء أو أم تنتظر أوبته ؟ أليس كائناً مدركاً ؟ ترى إلى أين مصيره بعد موته ؟ إلى الجنة أم

النار ؟

موتى البشر يضلّون سبل الجنّه فيذهبون إلى الجحيم ، أما هذا الكائن الصغير هل بقّي له حدس الطيور الحيّة كي يهتدي إلى الجنة مادام لم يذنب ، لأنه لا يعرف لذّة الذنب . لكن أليس لعالم الطيور ذنوبه الخاصة به ؟ من يدري ؟

لم يصل سليمان إلى أيّ جواب مقنع لأسئلته ، الأسئلة نفسها التي يطرحها الإنسان منذ صار عاقلاً فلا يجد جوابا لها ... لكنّه وجد نبع الهمّ الحقيقي منذ أن بدأ حواره عن كنه الأشياء الذي لاجواب عليه . تلك أسئلة توقظ حيرة مخيفة أمام الحقائق الأزلية .

* * *

حين باع بندقية صيده وانقطع إلى الرباب والشراب ، أحسّت فاطمة أنها تنزل درجة أخرى فقد أيقنت أن الثأر صار بعيد المنال وأن النار التي تأكل فؤادها تلتهمه نسيساً وعكفت على دلة القهوة والسكائر تقضي يومها في نفث الدخان دوائر تتبعها حتي تختفي وهي تذوب مثلها .

سألته قائلة : بتّ بلا بندقية ؟

- ولم البندقية ؟
- يغدو الرجل جميلاً مهاباً إذا حملها على كتفه !
- من قال لك أني جميل أو أني من ذوي الوقار ؟

أجفلت . لم تكن تتصور أن ابنها يتنازل بهذة السهولة عن ميراث العائلة وقد بات وارثه الوحيد . ولم يسمح لها كبرها أن تضيف حرفاً واحداً . كظمت أسفها وجرضت بريقها ثم صبّت فنجاناً وأشعلت لفيفة.

* * *

اكتشف فياض الشريفي سرّ صناعة المخلّلات وعمم معرفته على جيرانه

فأخذت كل عائلة تصنع حاجتها وتضعها في خابية كبيرة ، ثم تجدّدها كلما فرغت . واضطر صالح الباشا أن يبدّل تجارته فملأ الدكان بالأشياء التي يحتاجها البدو أيام التغاريب والتشاريق بحثا عن الكلأ قريباً من البحر صيفاً أو على أطراف الصحراء أو في قلبها شتاءً .

كانوا يستدينون من صالح حتى الموسم ، فلا يضنّ عليهم ولو أنّ أسعاره كانت أغلى قليلاً لأن المستدين يجب أن يدفع ، في رأيه ، ثمن الانتظار . وفي أيام الربيع عندما ينزل البدو في أطراف مجيد آباد ، كي يصدّروا بضاعتهم لأهل المدن ، كانوا يدفعون له ماأستحق عليهم من ديون ، فسارت أموره خيراً مما في السابق ، واشترى عقد ذهب لفاطمة .

ذات يوم خريفيّ ، أقدر أنّه في أواسط أيلول سقط المطر ، رذاذاً خفيفاً وانقشع الغيم سريعاً ، وأحسّت فاطمة بمغص شديد فطلبت «الدايه» فجاءتها على عجل وفحصتها فشخّصت أنها ستسقط جنيناً . وصحّ ذلك . ثم أصيبت فاطمة بنزيف اضطر معه صالح إلى أن يأخذها إلى المدينه كي يعالجها .

قالت لزوجها : انتبه إن شرّا سيحيق بنا . كل عارض صحي يصيبني هو نذير بحدث مشؤوم . انتبه إلى تجارتك !

والحق أن نذير جسدها فاق ، هذه المره ، بحدّته كل المرات السابقة. صارت تحسّ أن كل ماحولها في اضطراب ، كأنّ خللاً نفسيّاً وجسديّاً همّ بها فأوهن إدراكها وإرادتها.

وذات صباح استيقظت وهي في أقصى القلق . قالت لصالح :

ـ لايكن أن يمرّ إسقاط الجنين دون أحداث أخرى .

ـ هوّني عليك يافاطمة ، وتفاءلي بالخير تجديه .

ـ حلمت أن سليمان سقط في هوة شماميس من الناحية الشمالية قرب الباب . أريد أن أفسّر المنام عند الشيخ حسن .

ـ لاينشغلن بالك . إنها أضغاث أحلام . مع ذلك إذهبي إلى الشيخ حسن.
والذي أخاف فاطمة كل هذا الخوف ، هو أن سليمان عكف منذ أن انقطع عن الصيد إلىالذهاب كي يسبح في حوض العين الزرقاء . وكان يحسّ إذا لفّه ماؤها العذب الصافي ، كأنها تطبق عليه جفنيها كي تحميه من الشرّ . والمسافة بين القلعة والعين لاتزيد على بعض مئات من الأمتار يستطيع اجتيازها قفزاً . وقد قيل « إنّه يذهب بين الحين والحين بعد السباحة إلى جبل الخضر أو القلعة ورفاقه كي يشمّوا الهواء على الجبل » . قالت في نفسها « ماذا لوصحّ وسقط في الهوّة ؟ »

* * *

كان لفاطمة عند الشيخ حسن مقام لايعدله مقام أحد . كانت تغدق عليه الدراهم ولاتنسى أن تحمل له بعض الحلوى ، كي يتلمّظ بها مع أبنائه مساءً . قام لها احتراما ، وقلّما كان ينهض للنساء اللائي يجئنه للإستفتاء في شؤونهنّ .

قالت له : « اليوم يومك ياشيخ حسن ! » وروت له منامها فتناول تفسير الأحلام لابن سيرين ، ثم سألها « هل كان لابساً حذاءه عندما رأيته يسقط؟» قالت « نعم ! وكان يرتدي أحسن ثيابه.»

ـ إياك أن تخطبي له الآن . لاتستعجلي . إذا خطبت له هذة السنة فإن الفتاة ستكون شؤماً يأخذ كالهوة كل مالك .

ـ إضرب في الدليلة والجفر كي نتأكد .

ـ لاضرورة يابنت الحلال .

ـ هكذا أريد .

ـ على الرأس والعين . وسأكلم الجنّ مادمت خائفة .

واستشار الدليله والجفر ثم قال : «لاخطر . لاتخشي أمراً . حاذري

الخطبة!! ثم أتى بإناء فيه ماء وضعه أمامه وبسويق سنبلة قمح وغطي نفسه والإناء وأخذ يصفر صفيراً خفيفاً بالسويق وران على البيت سهوم سرّي وجوّ حزين ربما يكون مصدرهما أحزان الجنّ . وبقي على هذة الحال حوالي ربع ساعة . ثم رمى الغطاء وهو متهلّل فرحاً . قال :

ـ لاخوف أبداً على الصبيّ . ولو أن ملك الجن يهديك تحيته ويشير عليك بحرز يحمله أبنك ما دمت خائفه عليه . وهو لا ضرر منه أبداً . على العكس كله نفع .

ارتاح بالها ، فسحبت كيساً من صدارها وأخرجت منه نصف ليرة ذهبية نقدتها إلى الشيخ حسن . وودعته شاكرة واعدة أن تمرّ بعد أسبوع لأخذ الحرز .

قد لاتكون أحداث الفصول القادمة مطابقة كل المطابقة للواقع ، فأنا لم أشهدها ولم أشترك فيها . وإنما سمعت الذين عاشوها يروونها . ولقد اختلفت عند الرواة حسب خيال كل منهم . غير أني عمدت إلى غربلة الأحداث حتى جاءت كما هي هنا .

* * *

هبط الغجر إلى مجيد آباد على عاداتهم في الخريف وفي الربيع وعاثوا في الطرق كأنهم احتلوها : الرجال يبيعون الغرابيل ، وعدة القهوة المرة ، والنساء يبعن كل شيء من الإبر إلى الخيوط ، إلى الخواتم والأساور الرخيصة ، إلى غمزات العيون . وكانت آذانهنّ مفتوحة أثناء ذلك كي يعرفن الأخبار ، فسيستخدمنها في فتح الفال بالودع . ومرّت بصارة بأمّ سليمان ، فنادتها هذه وطلبت منها أن تبصّر لسليمان وبيّضت الفال نقداً سلفاً .

روت الغجرية لها المنام وكأنها هي التي رأته فعجبت فاطمة . لقد نسيت أنها تحدثت عنه مع كل نساء الحيّ ، ولا بد أن الغجرية سمعته من إحداهن .

قالت الغجريه بعد أن رمت الودع مرات عديدة : إبنك أصابته عين رجل باب داره متجه إلى الشمال . الآن لاخطر عليه من القلعة . لكن حذّريه من الصعود إليها بعد بلوغه الخمسين فربّما زلّت به قدم الشيخ . ولابدّ له من تميمة يربطها في فخذه ، يكتبها له أخي شهمورش ولاضرورة لخطبته الآن .

ـ من شهمورش ؟

- أخي الجنّي !

بعد أسبوع أو أقلّ عاش سليمان في أمن عظيم ، وقد احتاط من الخطر بحرز وتميمة وعزفت أمّه عن الخطبة رغم أن الفكرة راودتها على صغر سنّه،كانت تريد له خلفاً فقد أقفر بيتها من الرجال .

وحظي بيته بزيارات غجريّة عديدة من أجل التميمة والرقي والتعاويذ . جاءته « نوفة» ببيضه خطت عليها عدة خطوط متصالبة ، وبينها دوائر مشرشرة متداخلة وقالت له :

« ليلة الجمعة » اضربها على الحائط بيدك اليمنى وقل [نجنا ياربّ] ففعل وقبضت هي الثمن .

ثم حملت له خرقة زعمت أنّها من ثوب عدوّه الذي لم تقل اسمه وطلبت منه أن يأتي ببخور وجوزة الطيب ففعل كما دعته لأن يتبعها حتى باب المسجد الجامع وأخذت جمرة من منقل أمّه وفحماً فوضعتها قرب الباب وأخذت تعزّم بصوت خافت وتقول له : « قرّب وجهك وشمّ جيداً . » وهي تقرّب أنفها معه . وأعجبته هذه الرقيه فقرّب وجهه كثيراً وكذلك فعلت هي واحمرّ وجهه وارتجفت يداه ، ومن ثمّ لم يجرؤ على التمادي أكثر من ذلك .

ساعة انقضت أو تزيد ووجهها يزحف على وجهه ، ويهتزّ عموده الفقري من أركانه دون أن يجرؤ على تجاوز حدود التميمة ، لكن جفاف شفتيه أحرق كبده وكان سعيداً باحتراقة . ثم دعته «نوفة» إلي أن يزور مضربها مساءً كي يشاهد رقصها مع الذين يذهبون إليها كلما شعّ القمر من الشرق ...

لم يتوان ، ولو أنّه لم يذهب وحيداً . خوف ما ألمّ به،رافقه تميم الذي يحمل دائماً مسدسه ويلهو بإطلاق الرصاص في الهواء كما تلهو النساء بالزغاريد . ولقد رويت عن شراسته الروايات ، واصطناع الأسباب من أجل الدخول في معركة مع أوّل قادم .

كان يتحرّش بالناس فيتحاشونه كي لاتتأزم الأحوال فتصير الحبه قبه. لكنه كان شديد اللطف مع سليمان. يطيعه في كل شأن وينفذ كل رغباته.

ما وصل الرفيقان مساءً حتى قفزت نوفه مرحّبة، ودخلت إلى خيمة مجاورة ثم خرجت منها بزينتها كاملة. لبست زنّار الفضة وكذلك الخلخال. وشد العازف أوتار البزق فقد جاءهم ضيف من العلّية.

وأخذت نوفه تترنّح يميناً وشمالاً كأنها سكرى. ثم بدأت تهزّ بردفيها وبعدهما بالكتفين. وأخذت أعضاء جسدها ترتعش كأنها مصابة بحمى وجد وكأن أجزاء جسدها، على أهبة فراق إلى جهة مجهولة. كلّ منها كان يسير في اتجاه مخالف لاتجاه الجزء الآخر. وأحسّ سليمان أنّ عليه هو أن يردّ الأعضاء إلى الحالة الطبيعية أما «نوفه» فكانت وكأنها مازالت تشم رائحة البخور.

وقفت نوفة فجأة وذهبت فجلبت ماحمله معه سليمان، وأخرجت طبقاً نحاسياً فمدّت المائدة، ونسّقت الأقداح؛ شهوداً على عشق النجوم، وصبّت للحاضرين ثم قالت لسليمان: «بحياتي عليك أعزف على ربابك!»

لم يخالفها. عزف ثم صاح ببيت عتابا، دوّت التلال صداه في ذلك الليل الرائق القسمات وامتلأت رئتاه بنشيد عظيم، كأنه يتلوه من كتاب، وعيناه نصف مغمضتين ورأسه ينوس يميناً ويساراً، والدموع تنهلّ من عينيه... شيء كان يحترق في صميمه، فيجده ناعماً كصباح يوم قائظ، لأن لهيب العشّاق لايكوي جمره حتّى الموت. عذابه آخر. يلتقط بأصابعه الكرى فيرميه في جبّ الحياة الأبدية، ويهيب بعين العاشق إلى أن تظلّ يقظى مشرعة القلب والشفتين إلى ريّ مستحيل!

صاح سليمان: «أوف» فردّدت القبور البيزنطية التي حفرها لصوص الكنوز القديمة الصدى كأنها ابتلعت الصوت ثم ردّته إلى السماء مجبولاً بالغمّ،

وكأنه اختنق في المغائر ، وصعد منها إلى النجوم ، يهيم مثل بزاة جائعة .

وانتقل هوسه إلى الرباب . بدا للساهرين أن العزف اتّصل دون عازف . ظلّت يد سليمان ممسكة بالقوس لكنّها شفّت حتى صارت بعضاً منه . ووجد وجد القلب القدح والرباب والقوس والعازف والساهرين ، فهمّوا بآهٍ واحدة، جمعت نحيب قرون عديدة وعويلها ، بل كلّ أحزان مهزومي العالم .

من يعلم كم امتدّت العتابا والشراب ، فالعتابا بعيدة وقصيّة كأبد الشعب، حدودها عند حدود الألم ، وأوجها الأعلى المسرّة.

واهتزّ جسد نوفة مرّة أخرى . رفضت كل عضلاتها الجلوس قعوداً أمام نداء الصوت الجميل ... لكن تفاصيل الخصر والعجز كانت ترتجّ في بطء يشبه شهوة مكبوتة . وقفت على رؤوس أصابع القدم ، وامتدّ الذراعان نحو السماء، والأصابع اشرأبّت فباتت على أهبة أن تمسك بالأنوار الخفيّة التي تسللت نازلة من النجوم ، ثمّ هوى الذراعان كنيزك شرد من قلب الجلد ، وهوّم الجذع في نصف دورة ، ثم ارتقى وارتقت معه اليدان إلى أوج آخر . وخطت في خطا جؤذر ، ناعم النقلة والعين نحو اللحن الخارج من الحنجرة الذهبية فارتعد الصدر وتدلّى الجسد حتى دنت الركبتان من ركبتي العازف ، وركعت عليهما وهي تميل حتى الأرض ، وترتفع لا أعلم إلى أين . واقترب وجهها من وجهه ، ولفح نسيمها نسيمه ، لكن الشفاه لم تلتق . براءة الخفر دفعتها إلى عطش آخر، وزهد في كل شيء إلا التحديق إلى الآماد التي كشف النشيد والرقص عنها الستار ، فقفزت فوقه يائسة من هذا العاشق الذي أبادت فيه العتابا نداء الجسد.

ووقف الرقص وسكتت الرباب وقالت نوفة : «إلى الغد إن شاء الله !»

* * *

نزل سليمان وزميله عن الهضبة وهو يتلفّت إلى وراء لايحس بقدمه وهي تطأ التراب ، لم ينم في يومه ، ظلّ ساهراً لايريد أن يذهب عن فمه طعم

السهرة وأعدّ لذلك المساء شراباً ومآكل تضنّ بها عادة مجيد آباد وما أن طلع القمر حتى وضع الأشياء على حمار تميم وحثّ هو ورفيقه السير إلى الهضبة .

لكنهما لم يجدا أحداً . لقد رحل الفجر .

* * *

ارتجفت أعضاء سليمان ، وسقط على الأرض جالساً يرتجف ، فلا يستطيع كلاماً وهو يحسّ أن قلبه زجاج خرج من صدره ثمّ تحطمّ على الأرض، في المكان عينه الذي رقصت فيه نوفة . وبقي على جلسته حتى طلوع الفجر ، وتميم صامت لايقول شيئاً ، ولو أنه اشتهى أن يطلق رصاصه على شيء ما لايدرك ماهو .

عند انبلاج أول الأنوار قال سليمان : « هيا بنا!» ولم يضف أ ي حرف سوى أنه حطم الكؤوس والزجاجات وداس الطعام بقدميه وتراءى لتميم أن صاحبه أخذ يهذي ويقول أشياء تبدو كأنها لامعنى لها .

نعم أنا من مجيد آباد . بيني وبينها عهد أسود ، كأننا غطسنا معاً في جناح غراب ، أبي طقّ من القهر . ذهب قبل أوانه ، مثلما يذهب كل الآباء في مدينتنا المصابة بلوثة الموت المبكر ، تارة من سوء التغذية ، وتارة من غبّ الدخان والسعال .

إذا جاء يومي فلا يحزن أحد ولا ييئس أحد ، لأن رحيلي أزف فقد شربت من دنّ الحياة كل ماحوى من بؤس . شرف غيابي يجب أن يتمّ دون دموع . اضحكوا وأشيروا لحملة نعشي ، الذين لم يجرؤوا على أحراق جثتي التي سبقت كل الناس إلى مصيرها القاتم .

* * *

قال سليمان لأبيه : لا ! لن أعمل معك في الدكان . تظلّ تجوس جيوب الناس بحثاً عن شروى نقير . أنا لا أريد مالاً.

ـ لماذا إذن لم تتعلم ؟

ـ ما جدوى الكتب إذا كان كل ما تحويه في قلبك . أما يكفيك أني مثل ابن الفارض عشقاً وحنيناً ؟

ـ أنت ؟

وصمت أبوه صمت من تغادره أحلامه العظيمة في أن يصبح ابنه موظفاً. أما سليمان فقد أخذ يهذي فيبدو كلامه كلام مجانين أحياناً ، وأحياناً كأنه وحي شعراء . كان كل همّه أن يعدّ نفسه للقاء نوفه في الربيع القادم . يحضّر

جسده كي يكون اقوى وأجمل وكذلك صوته كي يمزّق الريح أشلاءً حين تعود فينوس .

قلت لسليمان : «من أين جاءك نبأ فينوس ياسليمان ؟»

قال « من باعة العاديات . مبهورون بجمال جسدها . وجدوه في أحد القبور وباعوه بثمن بخس ، لأنهم ظنّوه من أصنام الكفر .

ـ تقارن به جسد نوفة وأنت لم تره ؟

ـ أنا ؟... آه لو تدري ! ... أحزر كل قسماته ... لا أعرف أين هي ، لكنني أسمع كل خلجات ذلك الجسد ، حتى ولو كنت نائماً . آكل معها . أشرب معها ... أغنّي لها ... هي أيضاً تسمع ولاشكّ .

ـ فات موعد مجيء الفجر ولم تظهر نوفة ...

لم يحر جواباً . وذهب إلى المقبرة فالشباب يخرجون « القَيْمَة » من بيت علي أدريس كي يتباروا في رفعها . عندما ظهر في أوّل الزقاق صاح رفاقه : «جاء سليمان!»

كان جرناً من حجر أسود عليه حروف يونانيّه ، قديم من بقايا البيزنطيين وله على كل من جانبيه قبضة . كأن ينبغي رفعه بيد واحدة . رفعه جار له حتى الركبة وثان حتى الورك وآخر حتى الثدي . مصطفى أوصله حتى مستوى العنق وتقدّم سليمان فرفعه على امتداد ساعده ثم قذف به أرضاً في احتقار شديد وعلا التصفيق ثم بدأ الصراع .

عرفتكم بالقيمة ، لكني لم أعرفكم بصاحبها علي ادريس الذي كان مدرّباً عن هواية ومزاج . يبتهج إذا انتصر أبناء حيّنا ابتهاجاً لايعدله أى فرح . يدعوهم يوميّاً للتدريب حتى إذا حلّ عرس من الأعراس ونصب ميدان الصراع والقيمة عرضوا قوّتهم وحاولو أن يكونوا المجلين .

لقد قهرنا أبناء الأحياء الأخرى مرات عديدة ، لكننا لم نعترف ولامرّة.

أمّا إذا سطع البرهان ، ولم يدع لنا مجالاً للمماحكة قلنا إنّ السبب عدم وجود كل أقوياء حارتنا ، وأعلنّا أن للآخرين يوماً يعرفون فيه أي منقلب ينقلبون .

كان إلى ذلك سليمان مصارعاً قويّاً وحكيماً ، يعرف كيف ينتهز فرص النصر . يناور مثل قائد معركة . عدد الإنتصارات التي حققها للحي تفوق التقدير ، اسمه كان يثير رعب الخصوم . لو كانت للمصارعين مداليات في تلك الأيام ،كان ملأ صدره منها ووزّع على الجيران .

المصارعون حين يقهرون يفرّون من أنظار المشاهدين ، أمّا الغالبون فيتربّعون على «أوجَهِ» مكان من الحصيرة التي تفرش لوجوه الحيّ في الأعراس، إلا سليمان فقد كان ينزل إلى حلقة الدبكة غير تعب ولامغرور ، يفضّل الخبط بقدميه على تقبلّ التهاني والقفز مثل شيطان فتيّ . كان يريد أن يبدد حنق قلبه. كانت عيناه تمتلئان دموعاً لدى كل انتصار ، ويهمّ بالبكاء فيردعه كبره ولايجد شيئاً يبتلع حزنه غير الضجيج وعنف القفز .

* * *

كانت فاطمة أشدّ نساء الحيّ فرحاً به ، لأنه ابنها ، ولأنه وريث الأمجاد والأحقاد والثارات . لكنها كانت تستغرب الرنة الحزينة في صوته ووتر ربابه . وتحاول أن تجد السبب فلا تجد فتبكي إذا سمعته .

كان نساء الحي ، وأحياناً رجاله يمرّون بها في المناسبات كي يتناولوا فنجان قهوة ويتحدثوا عن فعال ابنها .

ـ زوجيه ياأم سليمان . لاتتأخري عليه .

ـ أخبروني من تليق به .

لم يجرؤ أحد على أن يقول لها « نوفه الغجرية » إلّا شحود ، فقد بكى حين سمعه يغنّي لرفاقه ، وارتكب ما يعدّ إثماً في القرية ، إذ دخل عليهم دون استئذان . وسكت سليمان غير أن شحوداً ألحّ عليه في أن يستمّر . قال له :

ـ أنت عاشق ياسليمان ...
ـ من أين لك علم هذا ياعمّ شحود ...؟

نعم من أين لك علم هذا أيها الشيخ الممتلىء سعيراً ...من أين له ؟ كلنا علمنا بنبئه منذ نعومة أظفارنا ، ودلّنا الشيوخ ، حين حدّثونا عنه ، على سبل الحزن والفراق والكآبة بل والبكاء ، عبر دروب الوعثاء والخطيئة التي عانى منها في شبابه . ربما كان سهومنا المسائي منقولاً عنه . ربما كان بكاؤنا تقليداً له . ربّما ولا أؤكد لكنني واثق من أنه استاذ عشقنا وكل القبل التي رشفنا ...كل المرارات التي ذقنا . لقد أضرم في قلوبنا لهيباً لاينطفىء إلا حين ننطفىء نحن ...

كم كان عمره حين اكتشف أحزان سليمان ؟ من يدري.؟ فهو بلا عمر، مثل أوتاد بيوت الشعر .كل النكبات : الحلّ والترحال ، الحرّ والقرّ ، تنزل على رأسه ، لكنك مهما شددت الحبل على عنقه فإنه يتنفّس دون عناء . لولاه ما ارتفع بيت شعر على عمد في كل الصحارى حتى تخوم البحار ، بل الأبد نفسه ...

في صباه عشق الغجرية « نورة » وصمّم على أن يرحل معها ويعيش حياتها . لكن أمير الخرابيش ، رفض أن يدخل الغرباء إلى كيان عشيرته .كان يريد أن يحافظ على دمها نقياً.

قال لها :« أخطفك يانورة ... أبيع فرسي ومهري وسيفي ومسدسي وأرحل معك إلى الارجنتين نعمل هناك ببيع الإبر والدبابيس ... أتعلّم منك صنع الغرابيل ، أرقص ، أدبك ، أغنّي . تعلمينني العزف على البزق ... »

لكن نورة كانت تهوى الخرابيش . تفضلها على القصور . تحبّها أكثر منه. ولم تجرؤ على ركوب البحار . مدلهة كانت بالرحيل وراء حمار في حرّ القفار وصقيعها ...

ذات صباح كان على موعد الفرار معها في المكان نفسه الذي نزلت فيه نوفة ، كأنّ تلك المنطقة كانت وقفاً على الغجر ... في الوقت نفسه : عند طلوع القمر وافاها غير أنّ الغجر كانوا رحلوا ...

* * *

لم يحر جواباً سليمان ، لم يعلن عن عشقه . أمسك بالربابة وغنّى طويلاً ...قيل لي حتّى الصباح ...ربما ...الصباح يجيء مبكّراً في مجيد آباد . لاينتظر كما يفعل في بقيّة العالم . حين تحلك الظلمة ، وتضع إصبعك في عينيك فلا تراها ، ينبثق مثل شرارة قادمة من مجهول خفيّ . يجيء مرتعشاً مثل فيض الدّم في صدر مسلول .

لكن سليمان أدرك عبر نشيده ، أنّ شحوداً من أنصار الغجر ، فباح له بسرّه وأخذ هذا يهتبل الفرص كي ينبيء فاطمة ويقنعها .

* * *

في تلك الفترة مرّ غجر آخرون دون رقص ولا غناء عزفوا عنهما منذ مرّت موجة عارمة من التعصّب الديني على بلادنا ، ووصلت إلى كل جزء فيها حتى خرابيش الغجر فتابوا ، لكنهم علّقوا البزق على العمود فقد حسبوا حسابات لاتخطر إلا ببال الجوالين دون هدف على الأرض ...دون مبدأ ...دون حسابات ... ببال الذين يفتحون صدورهم وقلوبهم للمفاجأه ، فقد تظهر عند ذات غياب شمس ، أو عند ذات فجر جنيّة ما... فتاة ما بملامح جنية فتنعش فجورهم وكآباتهم الأزلية ، فلا يبقى لديهم إلا أن يهزوا بالأوتار ويكتموا الدموع ، ويهللّوا بدق أقدامهم على الأرض لأشجانهم العتيقه ، وقد استيقظت على قدوم الجمال برائنها التي تنهش القلب .

ذهب إليهم سليمان . لم ير بينهم نوفة . ولا من يعلم شيئاً عنها . تذرع أنه يريد أن يعرف مستقبله ، وماذا يخبيء له الغيب .

تقدّم إليه عجوز يرتجف جسده عياء . قال له : « سمّ باسم الله وتيمّن بالفأل.» فسمّى سليمان ونفحه ربع ليرة ذهباً . قال العجوز قبل أن يرمي الحصا: « فألك من ذهب ، فانتبه لأن الذهب خوّان . يشبه المرأة ، لا أمانة له . »

عرف العجوز من شرارة عيني سليمان أنه يتلظى علي جمر الوجد ، وأنه ينتظر غائباً عزيزاً . قال له « ياسليمان أنت حكيم ، ذهنك يتسّع لما خلا ولما سوف يتلو من آلام البشر ، أنت منذور للعذاب فافتد نفسك بكبش تذبحه أمام الإمام إسماعيل ...انتبه ياسليمان بلقيس تحبّك ، لكن خرابك على يدها ... هي سبب دمارك وموتك ...مكتوب على جبينك الرضا . رضا الوالدين . ورضا العناية الإلهية ، واللهفة إلى ما لا يستجيب لك ، والشوق الدائم ، لأنك سوف تقضي زهرة أيامك في الفراق ... دموع كثيرة وحبّ كبير ...»

وصمت العجوز فلم يكن عند الحصا سوى ذلك .

لم ينتبه سليمان إلا إلى كلمه واحدة : بلقيس ! ... لماذا سمّاها هكذا ؟ سأله : « لماذا قلت بلقيس وهي نوفه ؟ » قال«لساني سبقني ولا أدري كيف ... »

أما سليمان فرأى في ذلك بعضاً من معجزة ...

* * *

عند المساء بين احمرار الأفق والظلمة . عندما تبتئس النفوس وتظلم السرائر طرق باب شحود الذي كان الموئل الذي يسترشد به شباب مجيد آباد إذا حاق بهم مكروه . ولقد كان حفيّاً بهم حليماً ، عاقلاً يحسن توجيههم. ولكم تساءل الناس عما يقصد به من اتصاله بالشباب وتقرّبه منهم وحدبه عليهم . لم يكونوا يتصورون أنه يريد أمراً عظيماً . وأنه كان يعلّم الشباب ، لأنه مصمّم على تحرير الإنسان وأن ينطلق في غزوه للحرية من مجيد أباد . كان يتمثّل بغزو الفرسان الذين رحلوا ثمّ دفنوا في ترابها العاقّ .

قال سليمان : «هيّا ياعمّ شحود . أعدّ نفسك . اليوم تتبدّل الأسماء».
ـ وتنخسف الأرض ؟
ـ بل تظلّ على عهدك بها : قحبة بلا عار ... إثمها أنها حملت على ظهرها الإنسان ...
ـ عزّها انّها حملت الإنسان ...
ـ مرّغت أنفه بترابها ... بجوعها وظمئها والفراق ...هذا المساء أبني لكم بيت الشعر ، أذبح خروفاً ، أترع لكم كؤوسكم .
ـ لم أشربها عمري يابنيّ ، ولو أني أشد الناس سكراً تبلى عظامي ولاينثلم عرض وجدي يشرب العشاق فأسكر أنا ...
ـ لكننا اليوم نبدّل الأسماء ، فلا بدّ من الشراب والتسكر .
ـ من يبدّل الأسماء ؟ دع عنك هذا ياسليمان . فرعون في أوجه لم يتوصل إلى تبديل حرف من حروف غرقه . الأسماء معجزه ياسليمان ، تنزل على الإنسان من مجهول خفي ساعة ولادته .
ـ لكن الأسماء تبلى كما تبلى العقائد...
ـ العقائد تبلى وتبقى الأسماء ...
ـ أنت قلت إنك لاتريد لها اسم فينوس ...
ـ آه فهمت ؛ أسماء النساء تتبدّل مثل العقائد . ظننتك تعني الأسماء الخالدة .
ـ الأسماء الجديدة إبداع . والحياة تحفل بالجديد دون انقطاع ، كما تحفل بتبدّل النوريين ثانية وثانية ... سنبدّل اسم فينوس بإسم بلقيس ...
ـ تلك أسماء عتيقة ... تبديلها مثل تبديل القدر ... إحذر ياسليمان يجب أن تقيم احتفالاً حسب الطقوس القديمة .
ـ سأعيد طقوس الأجداد إلى الحياة .
ـ الطقوس تعيش في المعبد ، وأنت بلا صلاة !

- من قال؟ أنت لاتصغي لصلواتي ... خذ معك سيفك .
- الشاكرية ؟
- نعم
- بعتها في أيام الإملاق ... بعتها يوم وجدت الشاري ... كان ذلك شتاءً .. نحن الفقراء نبيع كل شيء عندما يعصف البرد ...

لم يصغ سليمان إلى الكلمات الأخيرة . أشار إليه مودّعاً ومضى وهو يفكّر في نفسه ساخراً قائلاً : يريد أن أمرّ من تحت شاكريته ؟ مسكين لايعرف من أنا .

* * *

تقضي طقوس مجيد آباد أن تستعير كل شيء أيام الحزن وأيام الفرح . الاحتفال ليس لصاحبه . للمدينه جميعاً : من هنا كرسي ومن هناك ثلاثه . من هنا مخدّتان ومن هناك الحطب ، وكذلك البرغل . واللحم والسمن وبيت الشعر وأعمدته . خلال وقت قليل يغدو كل شيء على مايرام ، حتى ليظنّك الغريب القادم إلى ضيعتنا من أبناء بشوات السلطان لكنّ شحوداً أراد في ذلك اليوم أن ينبش من تحت ركام القرون التقاليد التي يبدو أنها تستحيل على الميراث ثم تبرز فجأه من غبار الزمن والعظام البالية .

* * *

لم يضيع وقته شحود . انصرف إلى أبواب بيوت الذين يظن أنهم ربما احتفظوا من العز برمح أو شاكرية لعلّه يرفع الإسم الجديد على سنّ الرمح ، ثم يمرّ الشباب من تحت شاكريته وقد ملأتهم الصبوة الجديدة حبّاً بمطلق لاعهد لمجيد آباد به . غير أن البيوت كانت جميعا خاوية وعند شحود بيت بلا سيف ولا رمح هو بيتٌ خواءٌ لاخير فيه .

* * *

تسأل عن رمح ياشحود ؟ ما نفعه ؟ لقد تقصفت آخر رماحنا في آخر ساعات الإقدام .

* * *

وطرق بابنا فقد كان على يقين أننا نملك سيفاً جاءنا من المعركة التي خاضها جدّي . ورثناه دون أن نرث المعركة ...

ـ أعيروني سيفكم لهذة الليلة فحسب !

ـ سيفنا ؟ ألست الذي نصح أبي بأن يعطية لحفيد صاحبه الأصلي ؟ ألم تكن حكماً بينهما ؟ ألم تفرض على أبي التراجع عن موقفه ؟

ـ خفت عليكم ...

ـ ممّ ؟

ـ من الثأر ! من الموت قتلاً على قارعة فلاة تافهة ...

ـ لمّا تخلينا عن الاقتحام ، تخلّت عنا السوف والرماح ...

ـ الموت على أرض عراء دون طرق تؤدّي إلى الفجر ، هو خال من روح الاقتحام ...

ـ الأمر سيّان ياعم شحود ، مادمنا صرنا بلا سيوف ... يبدو أن ذاكرتك وهنت فنسيت ...

ـ أنا أنسى ؟ أعرف حكاية أوّل حبة نبتت في برارينا ... وقصة أوّل ضرع شربنا حليبه ... لكني قلت لنفسي لعلّ أباك أقنع البدوي فيما بعد ، فاشتراه منه .

ـ لا تشترى السيوف ... تغتصب في الوغى ...

ـ في أيام الذّل تشرى وتباع ، ثم توضع حلية على جدار ، مثل خلخالٍ في رسغ امرأة .

* * *

اتخذ لنفسه شحود مبدأ هو أحياء التقاليد القديمة لعلّها تنعش الأفئدة

وتوقظها من سبات دام قروناً ... لكن طوافه بالبيوت التي ظنّ أنها تحوي بعض بقايا عدة القتال أدّى به إلى اختيار لامناص منه . اهتدى إلىأنه بعد جدل طويل بينه وبين نفسه وعزم على أن يمثّل التقاليد تمثيلاً ، ثم خشي أن يتحوّل الإحتفال إلى كوميديا ، لأن شبح الملحمة إذا ودّ أن يكتسي جلد الأحياء يغدو مهرّجاً .

ولقد قرّر شحود بينه وبين نفسه أن يوقظ إذن الملحمة بكل طقوسها كي تستيقظ النفوس لعلها تنبثق منها انبثاقاً فتتحول إلى فعل عارم التقاطيع يكنّس الموتى ويهدم الموت .

* * *

وجد كل شيء جاهزاً والشباب ينتظرون قدومه ، لم يمسّوا أكلاً ولا شراباً . وقفوا له فحيأهم ، واتخذ مقامه في صدر المجلس ، ومدّ يده إلى كأس فملأه وصاح : « على صحتّكم » وشربه دفعه واحدة ، ففغروا أفواههم مستغربين. عهدهم به لايشربها .

- تعاقر الخمرة ، ياعم شحود ؟

- اليوم خمر وغداً ... من يدري ما يجيء به الغد ؟ لو لم تكن مجيد آباد فارغة من كل شيء لما شربت ... ربمّا شربت منذ الآن كلّ مساء ... لعلّي لا ينتابني الحقد .

- الحقد ؟ ضدّ من ياعمّ شحود ؟

- ضدّ الجدران ألا ترون ما أغباها ...بلا تلبيس ولادهن ! عوراء فقدت عيناً. إذا حدقّت إليها أصبت بالعمه . حينما تستهين المدن بجدرانها يتفتّت القلب ، وتتضاءل روحها ، وينحطّ طموح آهلها . لمّا تفقد المدن ذاكرة الجمال تلتوي رقاب سكانّها ، يغدون أذلاّء قدر عاهر . كأننا حين نبني هذة البيوت العجفاء ، نتحدّى الجمال ونريد أن نرهقه ...

- نريد أن نسكن ... تريد أن نبقى في العراء ؟

ـ أريد أن تكونوا جميلين حتّى في فقركم !
قال سليمان : لماذا كلّ هذا البؤس في حديثك ياعم شحّود ؟ نحن في يوم فرح عظيم .
ـ كيف نقيم الاحتفال بلا سيف ولا رمح ؟ لا تتمّ طقوس الفروسية من دونهما.
ـ نحن لسنا في يوم تكريس للفرسان ، نحن في يوم تبديل الأسماء ..
ـ لايحق لأحد تبديل اسمه ما لم يكن فارساً ...

وحدث هرج ومرج وصياح . الشباب يلحّون على الشراب ونسيان الواقع، وشحود يريد أن يدفعهم للتحديق إلى الحاضر والمستقبل ، وإذا بعلي ادريس يظهر قادماً مسرعاً إليهم فصاح سليمان : «جاء حلاّل المشاكل!» ولم يستطع شحود أن يدفع فمه عن الابتسام .

وأصغى عليّ إلى حجج الشباب ، ثمّ التفت إلى شحوّد وقال له : «وأنت ماخطبك ؟ »
ـ يريدون احتفالاً بلا سيف ولا رمح ، فكيف يكون ذلك ؟
ـ رحلت السيوف والرماح منذ قرون . ألم يجئك نبؤها ؟
ـ كيف إذن يحتفل البشر ؟
ـ حلت محلّها عدد أخرى ... نأتي بمدفع رشاش ومسدّس ...

وفكّر شحود قليلاً ثم قال : صحيح ! يجب أن نكون من العصر ... من أين نأتي برشاش ومسدّس ؟

أعلن كثيرون عن استعدادهم للإتيان بهما . لكن أحمد الديماس قال : «آتيكم أنا بهما... بيتي قريب ...»

وبعد قليل علّق المدفع الرشاش على عمود بيت الشعر الأكبر فيما وضع شحود المسدّس تحت المخدّه التي يعتمدها في قعوده .

قال سليمان : يفرحنا ياعمّ شحوّد ، أنك صرت مع التطوّر . كبرت مدينتنا . بلغ عدد سكانها ـ والله أعلم ـ أكثر من مئة ألف .

ـ أكثر بكثير ، قال على أدريس ، ربما كانو مئتي ألف ...

قال شحود : ربّما ليت التطوّر كمّاً ... عندما جاءت أم علي حمدان عروساً من القدموس كان عمرها اثنتي عشر سنه . كان أكثر القادمين لمجيد آباد يعيشون في الغرف الباقية من السور القديم ، غير ثلاث قبب ، بنيت من لبن، وفي ظاهر الضيعة مزبلة عامّة ، يرمي عليها الناس أقذارهم . أتعرفون ما قالت قبل موتها بقليل وقد بلغت مائة وعشراً من السنين ... قالت : «ذهبت القباب والمزبلة . وبقيت الرائحة ...» وجاء عهد حينما أكثرنا من زراعة الياسمين اختفى فيه النتن . أما اليوم فإنه يزكم أنفي ... الذّل هو المزبلة ... كأس الشباب

أحسّوا أنه يهين مدينتهم . وكظموا غيظهم ، لأن شحوداً يتمتّع بهيمنة تتحول أحياناً إلى نوع من الغطرسة ، كانوا يغفرونها له ، لأنّه يشبه روح المدينة، فيه كبرياؤها وفقرها وصبرها وسورتها ... وصدقها .

ـ صدقها ؟

ـ نعم . المدن صادقة لاتكذب أبداً ، وأصدق المدن أكثرها عهراً ، في زواياها الضائعة يمرح الحنين ، ويموت الجائع فلا يدري به أحد غير أنّ الخنى فيها هو تعبير خالد عن ضياع الأعماق . والجوع الذي يعضّها لاتكون عظيمة من دونه.

ـ كيف نبدّل الأسماء ، مادمنا من مدينة ذلّ وهوان ياشحّود ؟

ـ إن أقرب السبل إلى النور هو أشدّها ايغالاً في الظّلام ... إليّ بالمنفيين عن الرجولة ،كي نعيد خلق الإنسان ، لأنهم عانوا هواناً وكيداً ، وكتمو غيظاً لايطيقه مرجل عضبهم أكثر مما أطاق .

يجب أن نحدّد هذا اليوم للبدء . وليهدر غضبنا ، لكن في حساب ، لأنّ

من يبدّل التاريخ ، يجب أن تكون أعصابه على قدّ التاريخ .

أنصتوا جيّداً ، اليوم نبدع خيراً جديداً وشرّاً جديداً ، لأنّ من يولد ولادة ثانية ، يجب أن يخلق لنفسه هموماً أخرى ، لاعهد له بها.

خطوة عزم ماضية إلى أمام ، وتضمحلّ كلّ الأشباح التي أطبقت مخالبها على روح الإنسان .

قال سليمان :«كيف نبدّل الأسماء ؟ دلّنا على ذلك ...»

ـ أنت الدليل ياسليمان . لقد عشقت فحقّ لك أن تبدّل اسماً باسم . لقد جعل العشق ارادتك فولاذاً له سحر الجّن . أن تعلن أنك ألغيت أحد الأسماء حتى يزول من ذاكرة الإنسان . لكن إيّاك أن تمسّ الأسماء الخالدة .

والتفت إلى الباقين وتابع كلامه : أمّا أنتم فلا بدّ لكم من أن تعشقوا ، كي تتغيرّ أسماء كثيرة ، لأن شغف العاشق كبرياء تلغي الذلّ والهوان . كيف تبدلون اسم أرض الذّل باسم وطن ، مالم تعشقوا من كل جوارحكم ، مالم تلوّنوا الكلمة الجديدة بشغف المشوق إلى موته ... كيف يحول الظلم عدلاً، مالم ينزه العشق أنفسكم عن الدنيئة ؟

أنا أبحث عن العشّاق ، لأنهم يحثّون الخطا على سبل الموت . يستعجلون زوالهم . إنّ أهم طباعهم الأفول ، لكن أقدامهم تدع آثاراً خالدة على الأرض .

وران صمت ثقيل على المحتفلين ، وشربوا كؤوساً كثيرة وهم سكوت لا تندّ عنهم كلمة ، كأنّ كلاّ منهم تجمدّ حيث هو . تتحرّك أيديهم وأفواههم كما يتحرّك المنوّمون .

كانوا يحسّون جميعاً أنّ سلكاً خفيّاً ، ربط بينهم وأن روحاً جديدة قرّبت بين أرواحهم وأجسادهم ، أيقظها نداء شخود . وأدرك هذا أنه وصل بهم إلى أوج الإيمان فوقف فقال : « هيا ولنقسم كلّ بدوره على أن ننقذ مجيد آباد من

الظلم ، لعلّنا نكون مثلاً لكلّ المدن البائسة.»

وتمّ ذلك في هدوء سعادة خرساء ، يقف أحدهم أمام شحوّد وقد أمسك هذا بالرشاش ووضع المسدّس على كرسيّ ، فيتلو القسم إلى أن انتهوا جميعاً ، وتفرّقوا دون أن يحسبوا حساب الأيام المقبلة .

أنا - كما ذكرت لكم - من مدينة مجيد آباد . إرفعوا - أيها القراء - معي كؤوسكم لمجد هذه المدينه البائسة . لقد رفعنا على باب مدينتنا ثوباًخلقاً ، جعلناه شبه علم يستظّل به البائسون حتى الأبد .

أمي كانت أمهر من امتطى جواداً في منطقتنا . حين شاخت ، عاشت على أمنية وحيدة : أن يكون في البيت حصان وأن تمتطيه في طراد أخير . لأن الفارس يجب أن يموت على ظهر مطيته .

وحققنا لها الرغبة فامتطت فرساً أصيلة ؛ لكنها لم تسقط فتموت كما كانت تتوخى ، ولم ندرك السرّ ، استغربنا أن يراجعها الشباب لم اعتلت صهوتها . وجهها تبرّج بحمرة شقيقة نعمان ، ولمعت في عينها غمزة ، كأن أبي مازال حيّاً . كان ذلك نوعاً من الاغتيال ، فقد خرفت ، وبتنا لا نطيق أن يضحك منها الناس إذا قالت شيئاً .

كان كل شيء ينبىء بالموت ، حين اندفعت الفرس على الهضبة ، لكنها رجعت تتهادى مثل فتى أرعن ، يعرض فتوّته أمام الصبايا والزغاريد ، لولا أنها متعبة والزبد يفور على فمها .

لم ندرك كيف انتهى المشوار بسلام . وعاشت أمّي بعده عدة سنوات في أسف السلامة وضآلة الذاكرة ... كانت تكره الإتكاء على العصا والصلاة قعوداً ...

وعرفت سرّ نجاتها بعد سنين عديدة ، حين سقطت أنا عن جوادي وأويت

إلى فراش المرض . زارني سليمان عائداً ولاح برأسه شبه مؤنب وقال :
- ألم أقل لك حين غادرتنا في رحلة اكتشاف العالم ، إياك أن تركب جواداً أبله ؟
- وماذا في الجواد الأبله ياسليمان ؟
- يعدو بك حتى قلب الصحراء فتفقد ذاكرة المدن وتموت ظمأً في مرافىء الجدب
- كل الخيل التي راهنا عليها في سباق التاريخ كانت بليدة !
- ولذلك سقطت كثيراً وتحطمت أضلاعك ألف مرة ... ألم تدرك أننا لسنا من التاريخ ؟...
- أدركت متأخراً ...
- خشيتي أن يراجعك جهلك !

منذ سنين هزلت ذاكرتي ونسيت وجوهاً عزيزة علي . واضطر الكثير منهم إلى استعادة أحداث حياتي معهم حتى أتعرّف عليهم من جديد . أمّا وجه سليمان فقد كان أقوى من وهن الذاكرة ، فيه خدوش ألف عام كأن أظافر البهيمة الخفيّة التي تهيمن على أقدارنا حفرتها بعهر القهر فخلّفت ظلال شقاءٍ تاريخي ، وانتظاراً بائساً لحدث ما يغيّر مواقع طلوع الشمس والعين الحمئة التي تغيب فيها أو وجداً جديداً يهبط من عليّين .

- ألست مؤمناً ياسليمان إيمان المسلم بأن الوحي انتهى عهده منذ أربعة عشر قرناً؟
- لكن عهد النبوءات ما انتهى بعد ...
- قلت لك زمن الوحي انقضى ...
- فهمت . لكن النبوءة لاتهبط من السماء . تصعد من القلب ،

وطوى كشحه يريد أن ينصرف عني ، لأنه يعرف أني لا أطيق الزيارات

الطويلة متى تشعّب الحديث يستبدّ بجفني النعاس .

أية نبوءة ينتظر هذا الحزين العتيق ؟ مدينتنا انتظار تاريخي ، تظلّ متوتّرة ترقب الحدث العظيم . لقد ورث الناس الإيمان بخروج المهدي من سردابة ـ بعد غياب طويل ـ وقد امتشق حسامه . ومنهم من يقول ممتشقاً رحمته وما له وللسيف ، ما دام نوره يهدي ـ عندما يشعّ ـ كل البشر . وربّما كان ذلك ميراث مجيد آباد الوحيد .

قلت لسليمان : «تستطيع أن تبقى قليلاً.»

ـ يبدو عليك النعاس ...

ـ نحن في زمن اليقظة ياسليمان !

ـ صحيح زمن اليقظة ، لكننا لانستيقظ ... لا أدري ما بي اليوم . يد ثقيلة تطبق على خناقي . أكاد يغمى عليّ ...

ـ غريب ؛ منذ دقائق كنت عاديّاً .

ـ أنا لم أكن عاديّاً في أية ثانية من ثواني حياتي ... أحسّ أن سحاباً يشبه السحب التوراتية يقوم بيني وبين حياة البشر . يسدّ عليّ كل سبل الإنسان . لم يدع لي غير فجّ ضيّق من آلاف الفجاج ...

ـ ربما كان سبيل الحياة ...

ـ لا أبداً ! كما أنّه ليس سبيل الموت ، ولاسبيل اليأس ... بين بين ! غامض كسواد العشّاق . يشبه انطباع الوهم في الذاكرة .

ـ أعرف هذا السّواد وأيّ رزء هو ، وتعاسة قنوطه وأعرف سمّ الخياط الذي تسمّيه فجّا وأنت على أهبة اختيار خطير بين الانتحار أو القتل . ولو أني أعتقد أن القتل هو الذي يختار القاتل ، كما يختار الانتحار المنتحر . تدخل الفكرة إلى ذاتك من مسام جلدك . تحبو قليلاً حتى تغدو قبضة تشدُّ على خناقك ولاتترك لك غير درب صغير تسقط في نهايته قاتلاً أو قتيلاً...

وران السهوم على سليمان . قال :

- وبعد هذا تريد أن أسمر معك ؟ وضعتني على حافة الهوّة وحيداً ...

ونهض لطيّته لايلوي على شيء .كأني به أحسّ أن في يدي مبضعاً يشرّحه حتى أدق الأعصاب ويخوض في أعمق أعماق عذابه .

تاريخ مجيد آباد مليء بالمفارقات التي تجعلك تظنّ أنها من غير هذا العالم...من عالم خفي جاءت منه بطريق الصدفة .

* * *

لم يكن يعرف شحود أنه يعيش في مرحلة قدر المدن فيها مباح وكبرياؤها منتهكة . لقد صفعت مجيد آباد على خدها الأيمن فأدارت الأيسر فصفعت عليه ثم الأيمن ، ثم الأيسر حتى سقطت بين قدمي الطغيان . وبات الذين فيهم أنفة مقصييّن عن مدينتهم .

ولقد صار شحود منذ أمد بعيد من عالم آخر ، يحدّث الناس عن أشياء غريبة عنهم ، تجيء من الدنيا التي يعيش فيها والتي لا علاقة لها بمشاغلهم ومشاكلهم فما يصغون اليه إلا لطرافته ، أمّا هو فكان يقدّر أنه يقوّم عوجهم ويهديهم سواء السبيل ، كانت كل أفكاره تمّرغ في الوحل ولايدري . أقواله تؤوّل حسب مصلحة المستمع ، يحوّل معانيها تبعاً لما يجنيه من ربح مادّي أو وجاهة .

كان يعيش في المدينه وهو غائب عنها لم يكن يعرف أن اللّص صار البطل وأن البطل الحقيقي دفن منذ زمن بعيد في رمسٍ عشّشت فيه العقارب التائهة ، وأن المتنبي صار عند الناس أفّاقاً . كلمات كثيرة غادرت معانيها ولبست حلّة أخرى وارتدت معاني جديدة . المجد أصبح وجاهة ، والوجاهة زلفى وقعوداً ذليلاً على باب أصحاب السلطة . وحين وجدوا أن قلوب هؤلاء ترقّ للوشاية ، بادروا إليها باللسان وبالخطّ .

صديقه مرهف صار آخر ، كأنّ عين دخيلته أخذت ترمق الأشياء بنظرة فارقتها المعرفة القديم ، وصبغت كلّ ما حولها بلون قاتم وقميء . انهار على جوانبه كلّ العزّ والأنفة .

كانت إذن ، رغبته في دفع الصخرة عن السقوط إلى قعر الوادي تهريجاً.

كل هذه الأشياء اكتشفها فجأة ساعة طرق بابه ليلاً علي أدريس . قال له:« ياشحود وصلت أخبار الاجتماع بالتفصيل إلى شومان .»

ـ ماذا ؟

ـ كل أخبار الإجتماع وصلت إلى شومان .

ـ كيف ؟

ـ من يدري ؟

ـ أعلن في مكتبه عندما جاءه الوجوه ،كي يقدّموا احترامهم الصباحي ، أنه عرف بكل الدسائس التي تحاك وأنّه سيحبطها جميعاً وأشار إلى أنّك الذي تتآمر على سلطته ... يجب أن تفرّ ... اختبىء قبل أن يصيبك حقده .

عندما همّ بالجواب أحسّ أن كل إلهامه فارقه ، وأنّ مسحة الشعر التي زيّنت حكاياته ، وهو يرتشف القهوة المرّة باتت قصية عنه . غضبه كان عارماً وألحّ عليه سؤال : من الذّي وشى ؟ لقد انتقى الشباب بتؤدة وحكمة وما كان ليخطر بباله أن يوجد بينهم واشٍ . واكتشف فجأة حقيقة لامرية فيها وهي أن السلطة عندما تحلّ محلّ المجد يتحول الشعب إلى مسخ يستجدي رضى الحاكم بهوانه ، أو إلى شهيد يقضي على خشبة ... والشهداء صاروا نادرين .

ـ أدخل ياعلي ... قالها شحود واهناً...

ـ يبدو لي أنك متعب ، جئت أحيطك علماً بالأمور .. وها قد انتهت مهمتي ... وذهب .

أغلق شحود الباب وأيقظ زوجته تركية . قال لها : «إصنعي لي فنجحان

من القهوة الحلوة . »
ـ في هذة الساعة ؟ قد تضّر بك .
ـ نعم في هذة الساعة ...
وشدّد على كل حرف من هذة الجملة ، كأنه يريد أن يعطيها معنىً خاصّاً.

* * *

أتوقف هنا في سياق القصة كي أورد أشياء لا يمكن للقارىء أن يفهم الرواية من دونها . أصيبت مجيد آباد بداءين ، لايمكن للمدن أن تتخلّص منهما، متى حلّ أحدهما أو كلاهما فيها : الأول هو « الفقس» الذي يشبه الجنون تماماً ، ولوأنه ليس جنوناً بكل معنى الكلمة ... والشرح هنا لايغني عن الأمثلة .

إذا جئت ـ أيها القارىء ـ مدينتنا صباحاً ، قليلا بعد انبلاج الفجر ، لا بدّ لك من أن تلاحظ شاباً يبلغ طولة المترين ، يروح ويجيء في زقاق يختاره لكل صباح . ويغنّي النشيد الوطني بصوت لابأس به . عندما كان مدرساً للغة الإنكليزية كان مهذباً ، مازال مهذباً . اختلفت طبقة صوته فقط . كان أقصر مما عليه الآن . كان يحبّ الخبز كثيراً . غالب طعامه منه . يتأنقّ بانتقاء أرغفته في الفرن .

وكثرت الولادات في مدينتنا كثرة عجيبة يصعب تعليلها على العلم ، عدد الأطفال فاق كل التصوّرات الإحصائية . وكثر الطلب على الخبز ، وقلّ الطحين ، ففسد مزاج الإستاذ وصار عصبيّاً غضوباً في معاملة الآخرين ، وبخاصة تلاميذه الذين يحبّهم جمّ الحب . وألحّت على الأفران حاجة البشر فعمد أصحابها إلى تنظيم البيع دفعاً للفوضى ، وأجبروا المشترين على الوقوف رتلاً منظماً لاينازع أحد فيه الآخر حقّه .

وارتاح الأستاذ لهذا المنظر المتحضّر وتفاءل بتطور المدينة ، لكنه كان يضايقه أن يقضي ساعة وأحياناً ساعتين حتى يجيء دوره فيأخذ ربطة الخبز دون أن يسمح له بانتقاء أرغفته .

وفي ذات صباح أرسل شومان دركياً من عنده يأتيه بالخبز فاقتحم الرتل ووقف في أوّله دون أخذ اعتبار للواقفين أو للنظام ، وانتقى ما يريده وولّى .

إحتقن وجه الأستاذ واضطرب قلبه ثم صاح بكلمات مختلطة لم يفهمها الآخرون .كانت هذياناً حقيقياً وازداد صياحه ، ولم يستطع أحد تهدئته حتى أغمي عليه فتبرّع بعض الحضور ونقلوه إلى بيته

لم يفهم الطبيب ماذا جرى له تماماً . كان يبدو أنه أصيب فجأه بالحول واشتدّ هذيانه . ووصف له المهدئات ، فاستطاع إلى أجل الإستمرار بالتدريس ، لكنه لاحظ أن ثيابه تضيق عليه وأن جسده يطول فنصح باستشارة اختصاصي بالغدد .

كانت نتيجة الفحص غريبة : لقد عانت الأعصاب هزة أثّرت على الغدد ومن المستحيل أن يسلم من الجنون ...

هكذا فقس الأستاذ وآل به الأمر إلى نزهات لاتنتهي إلاّ حينما يرهقه التعب والنّعاس .

الداء الثاني هو الفقع أو الطقّ ويدخل فيه الانتحار ، فلا تدري أمات الإنسان ميته عادية أم انتحر . ولأعط مثلاً على ذلك ، لايطاله الشك .

قيل لي أن جدي الأكبر كره الجبال وعزم على أن يعيش في السهل فجاء مجيد آباد ومعه ثروة وطفل مات أبواه فأخذه على عهدته .

كان مبذراً شديد الإنفاق ، فما عتم أن بدّد ماله . قال له الفتى ، وكان في تلك الأثناء قد يفع ، واستقل عنه وتزوّج .

ـ ماذا تريد مني في ضيقك ؟ أنا مستعد لخدمتك حتى يفرجّها الله عليك ...

ـ أن تملأ لي غليون التبغ بعد كل غداء !

لم يشأ أن يرفض مساعدته ، ولم يرد قبولها كبراً ، فاختار ما لا يغني ولايسمن كي يدلّه على أنّه مازال أثيراً لديه .

ومضت سنوات والفتى يزداد ثروة والعجوز إملاقاً ، لكنه دأب على إرسال زوجته إلى ربيبه بعد كل غداء فتعود ومعها الغليون وقد امتلأ تبغاً . وفي ذات يوم قال لها الفتى :

ـ أنا لاأستطيع أن أستمر في هذا الشأن حتى الموت ، ولست مسؤولاً بعد على القيام بأوده .

ورفض أن يملأ الغليون . ولما رجعت . قال لها : « أين الغليون ؟» فأجابت بغمغمة غير مفهومة ، وغضب فكرر سؤاله مرّات ثلاث في نزق شديد فقالت أمام إلحاحه : « لم يعطني ! » قال : « لم يعطك !» وتلفت يميناً ويساراً وأكبّ على الأرض ميتاً...

لقد فهم أمراً لم يخطر له طيلة حياته ؛ ولو أنّه أمر مُرّ فيه حقيقة العلاقة بين الإنسان والإنسان والتي تفرض عليه ـ منذ أن يدركها ـ أن يستقيل من الحياة ...أن يفقع ...

* * *

عجبت تركية أن يطلب منها شحود فنجاناً من القهوة الحلوة فهو يرى فيها كفراً بالمذاق . يشرب قهوته مّرة صافية ، ثقيلة معطرة بالهال . ربما اكتشف الحقيقة التي ذهبت بجدي ، ربما وضع إصبعه على سبب الإنحلال الأصلي .

أشعل سيكارة ورشف من القهوة . قالت له :

ـ هل آتيك بماء للوضوء ؟

ـ بعد قليل !

وخرجت لبعض شأنها ، ولم تطل لأنها لاحظت اضطرابه .

حين رجعت إليه ، وجدته أكب على الأرض تماماً كما فعل جدّي . وانقلب الفنجان وأحرقت نار السيكارة دائرة صغيرة في البساط .

ربما نهض كي ياتي بماء للوضوء فسقط في صلاة بلا وضوء - ربما كان يريد شحود وقد هوى وناره بين يديه أن يحرق بها العالم وما حواه من أرضين وسماوات ... ولكن ناره كانت هيّنة.

انتحبي أيتها الملائكة ! أبسطي جناح الرحمة ! أو افرحي إذا شئت فقد جاءك إنسان عادلٌ وأشمّ.

لم تكن باكية جنازة شحود . ولا زعقت فيها النساء حين فقدن السيطرة على أحزانهنّ . خيل كثيرة جاءت من الفيافي الشرقية ، وخراف للذبح من الناحية الغربية . لقد اختارت فجأة مجيد آباد أن تملأ خوابي فقره ويحوّل الصهيل الجنازة إلى غزو سعيد النهب ، يثري فرسانه مما كسبوا في غارتهم على أبواب الأبدية . لقد كانت يوماً مشهوداً في تاريخ الموت وسقوط الشهب .

كانت لا تدري تركية من أين تأتي بالجفان التي يطبخ فيها ما ذبح القادمون من الغرب ، من خراف . لكن القرى البسيطة تحلّ مشاكلها بدراية حكيم لايخطىء في أحكامه ... جفنة من هنا وجفنة من هناك ، وتم الأمر على ما يرام .

* * *

أقسم لي علي أدريس وهو إنسان صادق لا يرِ في الشك إلى أقواله ـ أنّه يوم جنازة شحود ، سمع إجهاشاً قصيّاً يأتي من مدارات غير مدارات الأرض. كأنه ينفذ إلينا من بين النجوم ، أو من أماكن أبعد منها . ولم يكن وحده الذي سمع تلك الأصوات . كل الذين اختارتهم السماء سمعوا ذلك النحيب ، وأضاف بعضٌ أن الترانيم كانت قوية حتى ليسمعها من يصغي السمع جيداً ، وبديهي أنّ أكثر الناس لم يصغوا ، لقد نظر علي إلى أعلى فرأى مايشبه

الأجنحة ، فأقسم بأن أجنحة ملائكية اقتربت من مجيد آباد وعشم خيراً ، وآمن بأن غد المدينه سيكون سعيداً كرمى لشحّود ، وأن الثروة ستهبط على الفقراء من عليّين .

سارت الجنازة في أبهة سلطان ، وعفة فيلسوف ، كأنها ترسف في أغلال نيطت بأقدامها من أبد التاريخ . كانت تسير مستأنية من خشية أن ترهق هذا الراحل بهمومها وأحزانها . وقد تتوتّر أعصاب موته فيلقى الله والملائكة بوجه كظيم .

وندّت عن المشيّعين همهمة تشبه بركاناً بدأ شريانه بالنزيف ثم صيحة ، تلتها وقفة قصيرة وردد الجميع مع الهاتف : الله أكبر ! ثم ساروا بخطو أسرع وبدّلت الجنازة اتجاهها من طريق المقبرة إلى الطريق الذي يدور حول سراي الدولة .

كان شومان متحفزاً لأدنى بادرة ، فقد جاءته أخبار تقول بأن الناس في هياج ، وأن جنازة شحود حبلى بأحداث جسام . ترى أليس عداء الناس القديم لشومان هو الذي حوّل اتجاه الجمهور ؟

عندما لفّت الجمهور عاطفة واحدة ، هيمن اللاشعور على الأقدام وتبدّلت الخطة من عدم الإحتكاك بالسلطة إلى إبداء العواطف العميقة دون سؤال عن النتيجة .

أما الطلاب الصغار فقد خرجوا قبل الناس جميعاً كي يتعلموا الدرس الأول .

كانوا ما تعلموا بعد قصة الموت ، لايعرفون شيئاً عن سرّه . يتصورون أن الإنسان نادراً ما يموت . كان يجب أن يروه بأعينهم ، لا أن يروا شبحه الذي يشبهه من بعيد ، وأن ينسلخوا عن عالم الموت جميعاً .

كانوا دون تجربة ، لكنهم عندما سمعوا الهاتف أدركوا ـ دون أن يدلّهم

أحد أنّ مدينتهم مدعوّة لشيء آخر ، غير شرب القهوة المرة والمتّة ، وقضاء الليل في حكايات يرويها محدّث لبق أخذها عن سلف من الرواة الذّربي اللسان وأنهم ربما كانوا اليوم يواجهون قدرهم دون مواربة .

لم ينتبهوا لأمر واحد ، وهو أن ذاك القدر يواجههم كل يوم صباحاً ومساءً وأنه يتجلّى عليهم بألف صورة وصورة : في جوعهم وعريهم وحاجتهم إلى ثمن الكتاب والدفتر وأنهم كل يوم مدعوون لتلك المواجهة بالقدر الذي يعلن لهم فيه أنه يتقبّلهم ضحايا دون ثمن .

علا الهتاف وتهدّجت الأصوات وتجهّمت الوجوه ، إحساس لايعلن عن هويته تقصّى أدق مسامات أجسادهم ، توتر الجلد نفسه وكأنه انتوى أن يغادر اللحم والعظم . كأنه انتفخ ورهف إحساسه وصار يتحفّز لأدنى لمسة . كأن الحدس فارق العقل واستقرّ في الجسد ، صار هو الذي يوجّه الأقدام في سيرها والأصوات في زعيقها النشاز كاقتحام أنياب مشحوذة لجثة .

واختصر الهتاف حسان ، وجعله ترديداً منظّماً لما يقول هو منذ أن هيمن صوته على بقية الأصوات ، مثل رداء سحري لفّ كل الوجوه المزمعة على تبديل الواقع وتباطأت الأقدام ، ولو أن سعيها بات ثقيلاً قوياً يكاد يثقب الأرض بطبقاتها الألف واقترب الخطو من مكتب شومان الذي حوّله إلى سجن ومعتقل ومعقل لطيشة وللجنود الذين يقودهم .

صاح شومان :« ألقوا بأسلحتكم أرضاً...»

وصاح الجنود :« ألقوا بأسلحتكم أرضاً...»

لم تكن هناك أسلحة . لكنّ شومان اخترع هذة الحيلة كي يخيّل للرؤساء في تقريره أن الجمهور كان مسلّحاً . ولقد اكتشف الأطفال منذ أجل أنه مجرم وأنه يجب أن يرجم فالتقطوا حجارة الطريق ورموه بها ، في حذر ودقّة تهاوت لها النوافذ ففتحت كوى لبنادق الشرطة ، فأطلقت رصاصاً في الهواء ارهاباً.

وتوقف الطلاّب هلعين ، وبعضٌ تراجع في نية الفرار غير أن حسّاناً وقف وصاح: « قفوا . لاتتزعزعوا!» ورددوا معه هذا الهتاف وتقدموا إلى مصدر النار فأجابهم شومان برشقة ... من هوى ؟ من سقط قتيلاً ؟ من جرح؟... لايدري أحد ...

لقد مضت الآن على هذة الحادثة أربعون سنة أو تزيد تضاعفت خلالها الأرقام مرات عديدة .

بعد مئة سنة سوف يقول الناس إذا استمروا على زيادة العدد بسقط مئة شهيد وأربعمائة جريح ... وربما أكثر ... لكن سليمان يؤكد أنّ حساناً جرح في صدره ، وأن أحداً لم يقتل . لكنّ إفادته غير جديرة بالثقة . قد يكون خاف أن ينتقل ما يرويه إلى السلطة ، ففضّل أن يحذف أسماء الذين استشهدوا والذين جرحوا ، لكنه لم يستطع بأية حال أن ينكر موت (عجيب) بعد أن جرح ، لأننا عدناه جميعاً في مرضه . لأننا جميعاً خرجنا في جنازته ، لأننا حملنا بأيدينا نعشه . وبأيدينا حفرنا قبره ومن ثمّ واريناه التراب على مهلٍ شديد، لأننا أردنا للأسى أن يعبث في حنايا أجسادنا كي لاننسى التفسير الذي أعطاه عجيب لموته ، فهو تفسير تاريخي ...

أنتم لاتعرفون عجيباً ، أمّا نحن الذين حفظناه كسفر كتاب نبويّ ، فقد أدمنّاه كخمرة تضحك ولا تسكر . تمهر في الإنسياب عبر عروقك إلى الذاكرة التي لا تنسى . يظهر في قولنا وسيرنا ، حتى يغدو جيلنا تراباً ، تنبت فوق عظامه أشجار لقيطة زواج يشبه زواج البغايا .

كان صادقاً فيما يروي من أحداث حياته وحياة الذين عايشهم . لكنّه يلوّن سيره بريشة خفيّة ، زاهية الألوان ، كان يحوّل ما التبس جماله ، فيجعله جميلاً كان يعرف أن الجمال الصافي لايخلو من ثقل الظّل ، ومما يجعله غير مستساغٍ ، فيصفه بأسلوبه ويمهره بخاتمه ، فيصير بارعاً مثله في التقرّب من

القلب .

لكنه كان يختلس براعاته من عمره ، فإذا خلا بنفسه ارتدّ بائساً وحزيناً. كل المجتمع الذي عاش بين ظهرانيه كان يختلس مثله ساعات السهر المسائية . كلهم حزين محرّمة عليه الابتسامة الحقّ التي تملأ الجوّ بطهر جوّاني . ولو أن المساء وعجيب معه شيء آخر .

لقد فقدنا برحيلة مجد النكتة والسير وأدركنا ما فاتنا من عجيب لأننا عايناه عن بعد ومن قرب ، من الأرض ومن السماء . عشنا كما عاش من فقر إلى فقر ، ومن قهر إلى قهر .

لقد أخذ موته وقتاً طويلاً ، لأنه أراده درساً ، ازداد خلاله جمر عينيه توهّجاً . عندما أصيب دار حول نفسه في دوار من يلتفت إلى جمال عبر عن يمينٍ وعن شمالٍ أو من شدهه مرور الحقيقة الكلية قريباً ، تكاد تمسّه الأصابع وانفتح فمه ، وكأن أحشاءه تريد أن تجأر بصرخة أو نداء للملأ الأعلى كي ينزل من السماء فيهبه الثروة والحظ ، أو يدفع عنه الرصاصة التي اخترقت صدره في المكان نفسه الذي عشّش فيه السلّ .

خال أنّه شفي من دائه وأن كل الأطبّاء الذين رآهم لم يتقنوا فنّ الشفاء ، كما أتقنه رصاص الموت ، خال أنه تصفّى وأصبح أشدّ شفافية من الحرير وأنه يغادر شيئاً ما من هذا العالم ، أو هذا العالم في خبب جواد سريع الطراد ، فمدّ يده يريد أن يأخذ هذا العالم كلّه معه ، لكنّه فشل فقرّر العودة ، مع أنّه ملّ البقاء فقد كان في عمر يزيد قليلاً ، أو ينقص قليلاً عن السبعين ، حسب تقديرنا الذي لايمكن أن يكون صحيحاً ، لأنه ولد في المرحلة التي لم يكن فيها من يهتمّ بميلاد أطفاله غير ذباب المزابل .

لقد حزم أمره عجيب ذات مرّة عندما جاع أطفاله ، على أن يقتل نفسه لا يأساً من الحياة ، ولا فراراً ، وإنّما تحدّياً . لكن اقتراب الموت كان راعباً

ارتعدت منه فرائصه فتراجع عمّا هو فيه . أمّا الآن فقد أصيب بقرفٍ ألمّ به حتّى أعماقه ، لأنّه جبن أمام أمر في غاية السهولة ، لقد اكتشف الآن أنّ الموت لذيذ وشهي . كلما اقترب منه أحسّ بأن جسد امرأة يكاد يعانق كلّ جسده فيما يشبه الزّنى .

لولا أمر واحد لكان الانتحار جميلاً ، وهو أن تفارق العالم وكل ما امتلأ به من حبّ وبؤس وحزن وسعادة .أنْ تدع الأضداد جميعاً لسواك فلا ترغب ولا ترفض ، لا تكره ولا تحبّ.

عندما سقط أرضاً أحسّ أنه يعاني تحوّلاً يغدو معه آخر ، مقتلعاً من جذع شجرة شفّافة ، تمرّ عبرها الأنسام دون أن تتوقّف .

ولكنّه في الطريق إلى المشفى رجع إلينا ، ودموع غزيرة على وجنتيه . ترى ألأنّه ظنّ بأنّه مفارقنا ، أم لأنّه غادره إحساسه بالبراءة ؟ ترى أيمكن أن يقتل البريء برصاص جزاف دون ذنب ؟

حين فتح جفناً عن جفن ، ارتجّت صورة العالم : البيوت البائسة صارت جزءاً من متحف أثري ، كله فوضى ،كل جدرانه مفقوءة العيون والأشجار أعواداً جافة والسماء لوحة رسام معتم النفس ، تبدّت باهتة الزرقة ، فارتدّ إلى تصوراته مرة أخرى ... ترى ألم يمت قليلاً ؟... لقد ظنّ أنّه مات بعض الشيء، لكنه لم تبق له من موته أية ذكرى .

لقد أحسّ انه أطفأ شموساً كثيرة ، من جملتها شمسنا التي تشرق وتغرب في نظام أبديّ ، نكاد ننفلق منه ... عندما فكّر بهذة الدقة أصابه صداع قاتل ... ما نفع الحياة إن لم تتبرّج كل يوم بحلّة جديدة ؟

بات الصداع رفيق أمسياته ، يلحّ عليه مثل طاغية عنيد . وذات مساء يشبه ما سبقه وما تلاه من أمسيات ، ذهبنا إليه نعوده ، فوجدناه غائباً عن الوعي . لم يعرف أحداً منّا . تخلّص من ذاكرته التي لم تحو خلال سبعين سنة

غير أبيات شعر قديمة وكثير من العتابا ، تبعث على الأسى الممزوج ببعض الغرور وبعض الدموع وكثيراً من الضحك .

كانت عيناه تحملقان في اللاشيء . سألناه عن صحته فلم يردّ ، وعن وصيته ، فأخرج وانياً قبضته من تحت اللحاف ، وشدّ بالقدر الذي تسعفه فيه النهاية ، ففهمنا درسه الأخير ، ثم جحظت عيناه وهما في آخر وثبة لهما إلى السقف حيث رسم سواد الشحّار وجهاً غاضباً .

هممت به فأطبقت جفنيه وشققت دثاره فأخرجت منه رباطاً شددت به حنكه وتطلعت حواليّ ... كانت قدمه عاريه ... جررت اللحاف كي تدفأ من برد الموت ، لكن اللحاف انزاح عنها وسقط كأنما بقدرة آخر الخفقات ، وظلت قدمه عارية .

* * *

لن أتحدّث عمّن قيل أنهم قتلوا ، أو جرحوا فقد كثرت الإشاعات حتى لاتستطيع تبيّن الحقيقة من ضدّها . أسماء كثيرة ذكرت لنا ورأينا أصحابها بعد أيام بيننا يتابعون حياتهم كما كانت من قبل ... أسماء أخرى ذكر أنها لم يصبها أذىً ، وبحثنا طويلاً عن أصحابها فلم نجدهم ... قيل إنهم رحلوا إلى الارجنتين بعد أن ضاقت بهم سبل العيش في مجيد آباد .

غريب ! متى كانت سبل العيش فسيحة فيها ؟ منذ أن وضعت لبنة على لبنة فيها ونحن نعاني ما ليس في وسع الإنسان أن يطيق ... لو أنهم ذهبوا إلى الارجنتين أما كانوا يبعثون لنا بالرسائل ؟ قيل لنا أن محمد الطويل سافر فيمن سافر ، ولكنا رأيناه بعد حينٍ وقد شاخ في شرخ شبابه ، وفقد أسنانه الأماميه جميعاً ، وسألناه أين كان فقال : « في بيت أبي لم أخرج منه إلا منذ يومين ... »

من أيام الزير أبي ليلى المهلهل ، بل من أيام سنوحي الطائر وجلجاميش والحكاية تتبع طريقاً واحداً لا ثاني له : تقع الحادثة فيرويها الشهود ويزيد خطأ الحواس في بعض التفاصيل التي يتناقلها الناس ، وهي ما تني تتسع ، وتزداد من فم إلى أذن ، ومن خطأ في النظر إلى خطأ في السمع ، إلى أن تحرّك رؤيا الفنّان فتتلوّن بألوانها ، الى أن تغدو بعضاً من المعجزة ، ثمّ تكتسي جسداً غير جسد الواقع وريشاً لا عهد للأنس به وتزهو حين يرويها الشاعر ، فتنقلب إلى أسطورة، تجذب البشر إلى سماعها ، وللقادر على الزيادة أن يزيد إذا شاء . والذي يحيّرني في أمرها أنها حين تنضج ، تتلفّح برداء ديني وتتدخل في أحداثها القوى النورانية . ولقد رويت قصص كثيرة عن الذين كادوا يفقؤون عين شومان بحجارتهم . وتناقلت الركبان بعضها فغالت فيه وأضافت إليه حتى بات كل من قذف حجراًأسطورة ترويها القوافل بعض لبعض وتغنّى بها القوالون فصارت الرباب تحكي في المساء حكاياتهم إلى شاربي القهوة وهم يتلمظّون بمذاقها المرّ ، وبالروائع التي ألهمت القصيد .

باتوا وليس للبدو حديث سواهم ، بل لقد تجاوزت الحكايات مضاربهم إلى مضارب الغجر الذين يتبعون القبائل في ترحالهم حتى حدود المدن . وصار اسم سليمان تاريخيّاً يعرفه القاصي والداني ويعرفون أنه ما ألقى حجراً إلاّ وتبعت قذفه معجزة ما أو عجيبة من عجائب البشر . وكانت السلطة وراء هذه الحكايات تتعقّب أبطالها في خوف من يخشى أن تتحوّل الأسطورة إلى وقائع

والشرارة الباهتة إلى جحيم مستقر .

كانوا يريدون أن يبتروا تحوّلات الحكاية ، فيجعلوها تافهة لاتليق بالذكرى والذاكرة . ولو أنهم يعرفون أنّ الأسطورة لا تقهر ، لكن الطغاة يتشبثون بالقهر من دون سبب ظاهر ، يخافون التحوّل نفسه ، وبخاصّة تحوّلات الحياة عندما تبني نفسها .

سمعت بلقيس بأخبار سليمان فخفق قلبها وصنعت المستحيل كي تقنع ذويها بالرحيل إلى مجيد آباد وأبى عمّها حميدو لأنه انتبه إلى أن ما كان إغواءً يراد منه جني الدراهم صار ولعاً يشبه الحبّ .

أوّل درس يعلّمه الآباء لبنات الغجر هو ألاّ يتجاوزن في منح عشاقهن من الغرباء غمز العيون والإبتسامة الفاجرة ، لأن الصبيّة متى تجاوزت ذلك سقط عنها درع الحصانه وارتكبت إثم خيانة القبيلة ، لكن بلقيس كانت تجد أنّ سعادتها القصوى في أن يقبّلها سليمان . ولذلك نأى ابن عمّها بالعشيرة عن كل ما يذكّرها بسليمان ولو بإشارة يد أو همس حنجرة ، مؤمّلاً في بعدها عنه، بالنسيان حتى إذا وصله نبأ إلحاحها في الذهاب إلى مجيد آباد تهدّدها : «أذبحك ذبح الغنم!» قال . قالت له : إذبحني إذا شئت ! أريد أن أذهب إلى هناك حيث الربح ، بل الغنى!»

ـ الغنى أم سليمان؟

ـ كلاهما ...

ومن العشيرة من أيّد رأيها ، فقد كانوا كلما جاءوا ديار سليمان جنوا مالاً. ومؤونة عيال إلا حميدوا ، فقد أبى كل الحجج ، ولم يخف توجّسه من أن تسقط إبنة عمه «في شراك ذلك المأفون!»

ـ تقول عنه مأفوناً ! ياعيب العيب ! نسيت كرمه وبذله ؟

ـ إنّه يريدك ...

- فليردني إذا شاء ، لأني لا أريده ...

وانقسمت العشيرة حزبين ، ولاندري كيف سمّيا حزب سليمان وحزب حميدو ، كما لا ندري كيف كانت الغلبة لحزب سليمان ...

يبدو أن مكائد نوفة ، نجحت كما تنجح النساء دائماً ، إذا قرّرن شيئاً .

• • •

وبعد ذلك بأيّام كان سليمان جالساً في باحة داره فسمع وراءه خشخشة تشبه خشخشة الريح ، أو سقوط ورق عن شجر . التفت فدوّى انفجار هائل في دماغه ... ريح صرصر عصفت فيه ... صهريج نار أشعل قلبه ...

قال فيما يشبه الفحيح : بلقيس ! ... لم يبح جفاف حلقه للصوت تفسير الحروف ... دوار كسلّ همّ به دون انتظار .

هي أيضاً مرّت بها الصاعقة ، وبأعصابها فأرهقتها ، وعجبت لنفسها كيف لم تسقط دون حراك . فأفأ وفأفأت ، فما فهم ولا فهمت ، فمدّ يداً مرتجفة وأشار إلى السرداب ، أن إنزلي ، فانسربت إليه انسراباً في خفة طائر الكدري .

كان القبو مظلماً ، غير أن بريق عينيها أضاء لها الدرج . كانت تظّن أنها ستسقط لدى كل درجة وتتحطم ، لأن القدمين كانا يترنحان كمصاب بهستيريا اللاتوازن ، حتى إذا وصلت إلى الفراش ، تمددت كي تستريح من هذا العناء الذي ألمّ بها منذ رأته فأوهنها أكثر من مسيرات القوافل الغجرية ، وقسوة الشمس الصيفية .

وتبعها هو خفيفاً كالظل ، فنهضت من قعدتها إليه ،كأنها بشرى جاءته من عالم الغيب . وقف قبالتها فدفعتها إليه ودفعته إليها قوّة خفيّة من عالم الأسرار ، رقيقة كنسمة تحمل ريح البنفسج ، والتقت دون أن يدري أو تدري شفتاه بخدّها عند اتصالة بجفن العين السوداء ، ثم تهاوتا على الخدّ الأسيل ،

كما يتهاوى الطائر في نزوله ، ثم أخذتا تروداں مسام وجهها مساماً مساماً كي يكتشف العوالم التي تخفيها ...

مرّ بكل تلال الخدّ ووديانه . ذاق أمواج بحاره . تعرّف على كل مرافئه وهو يتلمّس السبيل إلى مرفأ أمين تحط به رحال الظمأ الشفوي . والتقت الشفتان فأطبقتا بعض على بعض ، بالرقة نفسها التي تنطبق فيها الجفون على الجفون .

وهويا على الفراش وقد اقفر العالم عندهما إلاّ من أربع شفاه لاتعي ولا تدرك ، تكتشف العالم من جديد .

وجد سليمان نفسه مثل كولومبس أمام الأرض المجهولة . ووجدت نفسها مثل بلقيس على بساط الريح ، تمرّ بالكائنات مرور الأسطورة في خيال شاعر .

اكتشف كل منهما عالمه في جسد الآخر ، دون كلمات ،دون إعلان عن الرغبات والأماني .كانت الحقائق الجديده تجيئهما إلهاماً . الأصابع العمياء رأت تفاصيل الجسد ، وأدركت اللهفة التي تمرع بها طيّاته ، وأوغلت في خفايا السرّ حتّى هتكا كلّ استاره .

قالت له : تأخرت كثيراً.

قال : مازال النهار في أوّله ، حياتنا بدأت اليوم ...

ابتسمت وقالت : غداً أعود .

* * *

عندما ذهبت ، جلس يشمّ رائحة الفراش لعلّ ذاكرته تستعيد أروع أحداث حياته . والحق أنه عرف منذ كانت عنده ، أنه توغلّ أكثر مما ينبغي له ، لكنّ شيئاً ما في ذاته كان يدفعه إلى الشكّ فيما فعل ، وأخذ يتلمّس الفراش فوجد آثار دم عليه . كان لا بدّ له إذن من أن يتخذ قراراً ؛ ولقد اتخذه سريعاً .

قال في نفسه : أتزوجها ولا أدعها للفضيحة !

لكن كيف يقنع أباه وأمه بهذا الزواج . وقرّر أن يفاتحهما بالأمر . حتى إذا فعل ، فكّر أبوه لأنه كان لا يريد لإبنه أن يلوّث شرف الآخرين ، وبدا عليه أنه يرضخ لواقع الأشياء . أما أمّه فقد ثارت ثائرتها وتغيرت حالها كأنها أصيبت بمّس . تذكرت أولاً وصية الشيخ حسن بعدم تزويج ابنها . ولقد كانت كالحديد الصلب لا تبدّل رأياً إذا مضت فيه ولا تتراجع عن قصد وأكثر من ذلك كانت لا ترضى أن يبني ابنها بامرأة من غير العليّة . أوَلَيْسَ ابنها سليل الأمجاد ؟ قالت له لن تكون ابني إذا فعلت ... تتزوّج من غجرية ؟

وترددت زيارات نوفة لسليمان ، وأخذا يوغلان أكثر فأكثر بجنونهما.

أصرّ على أن أحزاننا مختلفة وكذلك أفراحنا ...

نظنّ أن العناية الإلهية صاغت آلامنا على قدّنا . فيها من البؤس ما لا يطيق إنسان احتماله ، وأنها تأنّقت في أفراحنا حتى ينكرها علينا من سوانا .

ترى فقيرنا ذاهل الوجدان من طول ما يتأمل فقره حتّى ليلهيه التأمّل عن السعي إلى الخلاص منه . يجود عليه بما يضحك من الصفات فيحول بؤسه إلى صورة كاريكاتورية . كلّ فقرائنا خفيفوا الدم . ربما كانو يجانبون الألم بالضحك ، أوليس في ذلك غاية البؤس ؟ إن تبديل البؤس إلى ضحك هو أقسى ما يعانيه البؤساء . كأن سبل الرحمة سدّت عليهم فأخذوا يحتالون عليها بالتهريج ، فقد يؤثر فيها أكثر مما يؤثر العمل والجدّ .

أمّا أفراحنا فنصفها صراخ ، ونصف بكاء ... في الأعراس يتوافد الفرحون إلى بيت صاحب العرس ، وقد لبسوا خير ما عندهم أو ما استعاروه من الجيران . ويتكوّمون في الباصات التي استأجرها الداعي ، أو تبرّع له بمشوارها أصحابها احتفالاً به . وتمرّ السيارات من أمامك وقد علا التصفيق وبعض أغان شبيهة بالهتاف ، لكن كلا التصفيق والهتاف مقصوم الظهر لا حيل له ، كي يهزّك فتشارك فيه . كأن المشاركين خرجوا عن طيّب نيّة لإعلان فرحتهم ، وما لبثوا أن ندموا وأرجعوا الأغاني إلى القلب ، عبر غصّات الحلق .

لا أدري إذا كانت براءتنا بريئة ، فقد طالت رفقتها للشقاء حتّى اتشحت بسواده .

لقد نبهت فينا إقامتنا على أطراف الصحراء يقظة قلقة تشبه سهر مريض بالكلب . كل ما فينا دائم اليقظة . نحسّ أن كل عضو من أعضائنا يراقب عضواً آخر : العين تسهر على الكبد ، والكبد يتأمّل الكلى ، والقلب لا تكلّ عينه عن مشاهدة ما بقي من الجسد .

شهواتنا مثل حريق جارف : شهوتنا للأكل فيها حرمان قرون وللشراب ظمأ ذئب إلى دم شاة ، والجسد يحرقنا كأشدّ النيران لهباً .

لكن الشّوق أشدّ ما نعاني : رائد حياتنا . مشوقون دائماً . الألم نفسه نشتاق اليه إذا طال بعده عنّا . كرهنا فيه شوق ، فكيف بصبابات الحبّ ، عزّال العتابا نهتز له حتى البكاء . وأكثر ما نعاني الشوق اليه الآفاق البعيدة ... البعيدة .

عسى أن تكون هذة الرواية على قدّ أشواقي ، فقد كتبتها في غفلة عن الزمن وأنا أعاني رغبة عميقة فريدة في الخلاص من عذاباتي ووهماً غريباً في ألّا نكتفي بالبقاء على أطراف الصحراء ، بل أن نرودها حتى تخوم الأفق . أن نجوب الأفق نفسه ، حتى ولو ابتلعنا مجهوله . ولدي أمل عظيم في ألّا تقف الحدود ، أية حدود عائقاً أمام تأملاتنا البهيّة .

ما لنا ولهذا لنعد إلى سيرتنا .

ألقي القبض على كثيرين فحاولنا أن نعرف من الذي قبض عليهم وحصلنا على جواب وحيد : السلطة . وهو جواب نسمعه دائماً في شتى المناسبات التي يريد فيها المسؤول أن يبعد الشبهة عن نفسه . ويلقيها على ما ليس له هوية وبات حاضراً دائماً . هو الجواب الذي يجب أن تفهم حين تحظى به انك غير مسموح لك أن تذهب أبعد ، أو أن تضيف سؤالاً آخر إمعاناً بالاستفسار عمّا يجري حولك .

وكان سليمان فيمن قبض عليهم ، ووضعوا في شاحنة سارت باتجاه

الجنوب الذي ينحرف قليلاً إلى الغرب .

كان متعباً سليمان ، اجهده تتبع الأخبار في الأيام الأخيرة ، فنام رغم ارتجاج الشاحنة وقسوة أرضيتها . ولم يستيقظ حتى وصل الموقوفون إلى هدف رحلتهم .

قيل لهم :« انزلوا ! » ... كان الوقت أوائل الليل ، تسمع فيه الصوت دون أن ترى المتكلّم . وما ذلك إلاّ لكي تكتمل سلسلة الأحداث بغموضها وسوادها .

نزلوا ... قيل لهم ترادفوا فترادفوا في صّفٍ واحد غير طويل ولا قصير . أغلب الظنّ أن العدد كان أقلّ من عشرين ، ولو أنّ بعضاً أكّد فيما بعد أنّه يزيد عن الثلاثين .

في اليوم الأول تركوهم ينامون ، وفي اليوم الثّاني أيقظوهم بعد منتصف الليل وجاؤوا بسليمان للتحقيق . قيل له : ما اسمك ؟ أجاب : سليمان

- الحكيم ؟
- لست الحكيم ، ولو أنّي لا أخلو من الحكمة ...
- اسمك الكامل . ومهنتك ؟
- سليمان بن صالح الباشا . أبي تاجر ...
- قلت : مهنتك أنت ؟
- لا أفعل شيئاً .
- بل تفعل أشياء كثيرة ...
- مثل ؟
- أنت المسؤول لا نحن ... ماذا تفعل ؟ منذ الصباح حتى المساء ؟
- هنا ؟ أنام وآكل حين أعطى طعاماً .
- ماذا تفعل في مجيد آباد ؟

ـ المدينه ضيّقة وصغيرة ، والمهن فقيرة . وأنا لا مهنة لي . أعزف على الرباب وأغنّي عتابا وميجانا . وأزور الأصحاب حتى المساء . ثم أغنّي ورفاقي قبل أن ننام . وأحياناً ونحن نائمون . أنا أرى أن الغناء هو الدليل الوحيد على أنّ الإنسان خالد ... هذا كل شيء .

ـ قلت إنك لا تخلو من الحكمة . فأرنا بعض حكمتك !

ـ لا حكمة في اليوم الثاني ... الحكمة في اليوم الأول ...

ـ يبدو أنك لا بدّ لك من أن تقيم ردحاً من الزمن عندنا ، حتّى تتعلّم الحكم الحقيقية فهي تعوّد وتعلّم ! ما الفرق بين اليوم الأوّل والثاني ؟

ـ هنا في السجن لا يوم أوّل ولا ثان ... أحسّ أنّنا في الأزل السحيق الذي يختفي فيه التقويم .

ـ يبدو لي أنك لاتعرف أيام الحكمة ، فاليوم الأول ليس سوى نذير .

ـ أنا معك حضرة المحقّق . لا حكمة في اليوم الأول ولا الأخير ، إلاّ إذا حدّد الإنسان مواعيده . اليوم الأوّل هو خلق الإنسان خلقاً جديداً . يرتفع فيه سيف العدل وينير الدياجير . يختفي الظلام ، ونحول نحن ضياءً ...

ـ أنت تتكلم عن عالم آخر ...

ـ صحيح عن العالم الحقيقي ، عالم النور ...

ـ والمظاهرة ؟ هل هي من الظلمة أم من النور ؟

ـ لم أحاول تفسيرها ... تظاهر الشباب فشاركنا ... ألا نشارك أهل البلد ؟

ـ يبدو أن إقامتك ستطول عندنا ياسليمان الباشا . أتيت بك اليوم ، كي انبّهك إلى أنّنا نعرف كل شيء عنك وما صنعت ، وخير لك أن تعترف ، أو ذقت هواناً ما بعده من هوان .

وأشار للحارس قائلاً : خذوه !

* * *

في اليوم الثالث ، أيقظوا سليمان في الساعة الثالثة صباحاً وجاءوا به . اقتلعوه من حلم جميل من احلامه ببلقيس ، خرج إليهم ، وأثر قبل المنام على شفتيه يتلمّظ بهما ، وسوال يلحّ عليه أكثر من أسئلة المحقق : كيف ينقذها ؟ إذا بقي في سجنه ما تغدو حالها ؟ كان خوفه من السجن ، لا يداني خوفه من أجلها . لكنّه لم يجد حلاً .

قال له المحقق : « سمعنا أنّك غني ياسليمان ... »

- أبي على شيء من الثروة ، أمّا أنا فمثل طيور البرية ، زادها في السنبلة التي لم تحصد .

- إذن أي نفع جنيت من المظاهرة ؟

- من قال إن المظاهرة ذات نفع مادّي ؟

- هل الفائدة التي تبتغي معنويّة ؟

- ولا هذه . غير أنّي أحب أن أقول كلمتي ، وعلى الطريقة التي ابلّغ فيها أكبر عدد من الناس .

- وهل بلّغت ؟

- حاولت !

ثم أمر المحقّق بردّه إلى زنزانته ، بعد أن حصل منه على هذا الإقرار .

قال سليمان : سيادة المحقّق ... أريد أن أسرّ لك بأمر .

وقدّر المحقق ، أنه سيدلي بإفادة أخرى . قال له : ما هو ؟

- انا واقع في ورطة ، يجب أن أخرج من السجن كي أتزوّج البنت التي أريدها، فهي في أزمة وشرفي يأمرني بأن أنقذها .

- وهل تظّن السّجن فندقاً تخرج منه إذا أردت وترجع إليه إن شئت ؟ على كل حال أفهم وضعك وأنّ الحقّ معك ، سأحاول مساعدتك ...

بعد أ ن خرج سليمان إلى زنزانته أحسّ المحقّق ببرد الراحة ، وقال في

نفسه : « مادام في هذة الورطة ، سوف أجعلة يعترف بكل شيء لقاء وعد بإخراجه من السجن . وأخذ يلحّ باستجوابه كل يوم لعلّه يتوصّل إلى اعتراف بالتنظيم .

* * *

كان حدس سليمان صحيحاً ففي تلك الأثناء كانت بلقيس تعاني حرجاً آخر خطيراً . لاحظت أن دورتها الشهرية اختلف موعدها وتأخرت أكثر مما ينبغي واستخلصت من ذلك أنها حبلى . ماذا تفعل وسليمان في السجن ؟ وأخذت تفكر في إيصال الخبر إليه بأية وسيلة ، دون أن تحسب حساب التحقيق واستغلاله لأدنى خبر . ولم تكن هي بقادرة على أن تغلّب العقل على الخوف .

تعرّفت على بعض ذوي الموقوفين ، وقبل أحدهم أن ينقل الخبر إلى سليمان . وحين ذهب هذا لزيارة قريبه ، قال له في غفلة عن الحرس : نوفه تبلغ سليمان سلامها وتقول له إنها حامل ، فماذا تفعل ؟

في أيام الأتراك كانت السجون بلا حمّام . وكان السجناء يطلبون في بعض الأحيان من الإدارة السماح لهم بتسخين ماء في القواويش ، كي يستحموا من اجل الصلاة وما كان السّجان التركي ليجرؤ على الإنتقاص من ذريعة دينيّة . ومع ذلك كان السجناء في غاية القذارة حتى أن المساجين الأربعة الذين ألقي القبض عليهم بعد أن بنيت مجيد آباد بمدة قليلة ، مات منهم اثنان وأصيب ثالث بالفالج ، لأن أجسادهم لم تطق النتن ، أماالرابع فقد أصيب بالسل ومات في أوج شبابه .

وحين جاء محتلّ آخر يزعم تطوير البشر وتحضيرهم بنى في كل من السجون الكبرى حماماً مقسّماً إلى أقسام كأنه بعض من قلعة ، لكثرة ما فيه من تعاريج وزوايا ، قيل إنها أحدثت كي لا ينفذ الصوت من مكان لآخر ، فلا

يتكلم السجناء بعض مع بعض . لقد جعل حماماته خرساء بلا صوت ولا صدى ، إذا صحت لم يتجاوز صوتك جدار القسم الذي انت فيه .

لكن الشيء الذي لم يخطر ببال إدارة السجون هو اختلاط السجناء بعضاً ببعض حين يردون للحمّام بحجة استعارة صابون او ليفة من صديق .

حين جاء يوم الحمّام ، اهتبلها أحمد العابد فرصة ، واقترب من سليمان فأسرّ له بتحية بلقيس وخبرها .

ارتخى فك سليمان وجحظت عيناه فرقاً . لقد قدّر كل شيء واتخذ قراره بالزواج منها لكن لم يخطر بباله أنها حبلى ... سمع الخبر ولم يسمع ...لم يستوعب كأن المتكلم لم يكن أحمد العابد ، وإنما كائن ما،شخص ما ، من خارج هذا العالم ، ليس ملاكاً ، ولاشيطاناً ، بل إنسان تكلّم من قبر ، من وراء حدود الحياة ، من الظلمات التي تصبغ وجودنا بسوادها ، من بحار بعيدة، تزدحم فوقها أعاصير الموت ، والفراق الأبدي .

دخل على القسم الذي خصصه له الحارس في الحمام ، وفكّر جيّداً فيما قاله له العايد . حدّق إلى الخبر وكأنه رؤيا يراها ، بكلتا عينيه ، فأحسّ أنهما جحظتا ، وأن الخبر ينتقل بطيئاً عبرهما إلى القلب والضمير .

صاح وكأنّه يكلّم أحمد العايد : « ماذا قلت ؟» وجاءه الجواب كأنما من وراء الحياة والقبور : « ماذا؟ » وكرر سؤاله وصوته يرتفع المرة بعد المرّة ، غير أن حيلة المهندس في تخفيف الصوت نجحت ، لأن أحداً لم يردّ على «ماذا؟» مع أنه جمّع كل ذاته في هذا السؤال البسيط ... طلب تفسيراً من البشر ، بل من الله نفسه ... لكن البشر لم يردّوا ، ولا ردّ الله ، ووجد نفسه سليمان وحيداً وحدة ارتطام الصدى بجدار . صرخ : حبلى ياإلهي ... وأحسّ أنه يستنجد وأنه الساعة أشد إيماناً من كل لحظات حياته... أحسّ أنه مؤمن يستجير .

وصرخ : « حبلى ياإلهي ! »

وفكّر بشيء وحيد هو المحقق . قال في نفسه : « لابدّ من إثارة اهتمامه واسترضائه ! »

كان سليمان مستعداً لكل شيء ، حتى الوشاية برفاقه في سبيل بلقيس وأحسّ بالخذلان حتى أدقّ تقاطيع جسده ، ثمّ ولا يدري لماذا ردّد المثل الذي يقول « اليد التي لاتستطيع عضّها ، قبّلها وادع عليها بالكسرا» وشعر انه بات خاوياً إلاّ من الفراغ وأنّ شيئاً عزيزاً عليه سقط في قلب هاوية بعيدة .

وطال أمر سليمان بالحمام لايخرج منه ، فقرع عليه الخفير الباب ، ولما لم يسمع جواباً ، فتحه عنوة ، فوجده مغشيّاً عليه ، فاستعان بسجّان آخر وأخرجاه عارياً جرّاً إلى زنزانته ، وتقدما بتقرير مفصل عمّا حدث إلى المحقق .

أمّا هذا ، ففرك يديه وقال في نفسه : «الآن نستطيع الوصول إلى ما نريد منه.»

* * *

تلك الليلة لم يستطع النوم سليمان . تمدّد على حصيرته ، وعيناه ثابتتان على السقف ، وبين فترة وأخرى يرتجف جسده جميعاً ، كمن مسّه تيّار كهرباء. وفي الساعة الثالثة فتح بابه ، فجلس ولبس حذاءه وقال للقادم إليه : « هيا ! أنا جاهز ! »

فوجىء الخفير الذي جاء لاصطحابه ، فقد تعود منه التباطؤ في الذهاب إلى التحقيق ، حتى إذا وصل إلى مكتب المحقق . قال الخفير ، وكأنه ينبّه قائده إلى أمر هام : « سيدي الرائد ! سليمان جاء اليوم دون تلكّؤ ، ويبدو أن عنده مايقول.»

فرح المحقّق ، وعزم على أخذ سليمان باللين . طلب له فنجاناً من القهوة وقدّم له سيكارة . ولم يبادره بالسؤال إلاّ بعد لأي ، ارتاح سليمان تقريباً مما يكابده . بعد ذلك قال له : « الآن ياسليمان هات ماعندك !»

قال سليمان : « اسمح لي أن أسألك : هات حضرتك ما عندك . قل لي حول ماذا يدور ظنّك ؟ وأنا أجلو لك الحقيقة كلها . »

ـ إسمع : أريد أن أصارحك . حدثني بشأن التنظيم الذي قمتم به بقيادة شحّود .

ـ تنظيم ؟... تنظيم ماذا ؟ لم يكن هنالك أيّ تنظيم ...

ـ وقسم اليمين . والمرور من تحت السلاح . والإلية على أن تنهضوا بالبلد ؟

ـ أتسمي هذا تنظيماً ؟ لم يكن عند شحّود غير هدف واحد هو إحياء الروح الإحتفالية التي درست . أراد منا ـ نحن الشباب ـ أن نحيي ما مات على أرضنا عبر عصور التخلّف من أفكار وآمال وطموح . أمّا السلطة فلم يدر في خلدنا ان نتحرش بها أبداً.

ـ والمظاهرة ؟

ـ جاءت من غلواء شومان في الإضطهاد لا من شيء آخر ...

ـ شومان في المدينه منذ سنين طويلة . لِمَ لم تتحرّكو ضدّه من قبل ؟...

ـ لأننا كنا نتصوّر أن الإضطهاد من حقة .

ـ ثم اكتشفتم أن ذلك ليس من حقّة ، وعوّلتم على مقاومته ؟

ـ ذلك صحيح ! مقاومته حتّى يرعوي عن غيّه ...

ـ ماذا إذن تسمّي ذلك ؟ نحن ندعوه بالتنظيم السياسي ...

ـ حينما تقاوم البغي ، تعتبر متآمراً ؟

ـ حينما ننشئ تنظيماً يقاوم ما تسمية بالبغي ... ويبدو لي أننا مختلفان في معنى كلمة بغي ...

ـ اسمع سيادة المحقق . أنا مستعّد لأي شيء لكل ما تطلب منّي . وليس لي غير شرط واحد هو أن تطلق سراحي ثلاثة أيام ، وأعود بعدها للسجن بملء حريتي، أقسم لك بشرفي .

ـ بشرفك ؟ (وضحك المحقق) ... وماذا تفعل في أيام ثلاثة ؟ تنظيم مظاهرة ؟
ـ لا ... أبداً... خطيبتي في ضائقه شديده ... في حاجة ماسة لأن أخرج فاتزوّجها . وبعد ذلك أغدو رهن إشارتك ...

وجد المحقّق الفرصة سانحة ،كي يدلي سليمان بما يُطلب منه فأراد أن يضغط عليه أكثر ...نادى الخفير وقال له : «ردّه إلى زنزانته !» ثم التفتَ إلى سليمان فقال له :« إسمع ياسليمان . أنا متّفق معك على الخروج من السجن نهائياً شريطة أن تدلي بكل ما عندك.»

وقف سليمان عند باب المحقق قليلاً كأنما يريد أن يقول شيئاً . وتركه المحقّق يتلكّأ كما يريد . ثم لاح برأسه وخرج مع الخفير .

لم يدعه المحقّق لا في اليوم الأوّل ولا الثاني ولا الثالث بعد هذه المقابلة ومرّت أيام أخرى وسليمان يذوي من حنوّ وحزن وأسف . ولما طال به الأمر نادى الخفير وقال له : « أريد أن أرى المحقق ... ذلك ضروري جدّاً »

ولما تناهى ذلك للرائد فرك يديه وقال : « ائتني به » حتى إذا جاء ووقف أمامه قال له : « نعم ياسليمان !»

ـ سيادة الرائد ، أطلت عليّ . قلت لك خطيبتي تواجه الخطر ووعدتني باستراحة ثلاثة أيام من السجن ، أنقذها فيها ثم أعود ...
ـ لسنا بحاجة لوجودك في السجن . نحن بحاجة لاعتراف وأنت ما اعترفت بشيء !
ـ أكتب على ورقة ما شئت ، أوقّع لك .
ـ ماشئت ! تريد أن أقوم بعملية تزوير ؟ تكلم أنت فأكتب حديثك ثم توقع. الإستقامة بعملي ، تأبى عليّ ما طلبت .
ـ سلني وأنا أجيبك ، ومن ثمّ تكتب ...
ـ حدثني عن الحزب الذي أنشأتم ... أهدافة ... قيادته ، تنظيماته ، موقفه من

السياسة الحاليّة ...
ـ قلت لك ما من حزب ، لقناعتنا أن الدساكر والقرى لا تستطيع أن تبدّل التاريخ . الذين لعبوا ـ من أبناء القرى ـ دوراً في التحوّلات الكبرى ، نزحوا إلى المدن أوّلاً . وقليلاً ما يتجاوز خيال ابن القرية أو طموحه ، حدود قريته . المشاكل الصغرى هي التي تشغل عقله وتكون شخصيته . ولاتنس أنّ السرّيّة مستحيلة في الدساكر . كل الناس يعرفون كل الأسرار . يكتشفونها من دون أن يبحثوا عنها . نحن مؤمنون أن التحوّلات آتية لا ريبْ ولكم يحزننا أن نكون تبعاً في التحوّل ، لأنه بحاجة إلى البراءة ، وقد لا توجد البراءة كاملة في المدن.
ـ ماهي طموحاتكم إذن ؟
ـ طموحنا مسيحيّ متواضع . نبدأ يومنا وننهية بصلاة ربنا أعطنا خبزنا كفاف يومنا ولا تدخلنا في التجربة ، لكن نجّنا من الشرير آمين .
ـ من أين لك علم ذلك ؟
ـ علّمني جارنا الأرمني أبو كروب كل الطقوس المسيحية قبل أن يموت .
ـ ماذا وجدت فيها ؟
ـ وجدت فيها القبول المطلق والرفض المطلق : قبول الموت بطمأنينة صافية ، ورفض الموت كرهاً بالموتى ... أعني الموتى الأحياء .
ـ كيف ذلك ؟
ـ رفض ما هو قائم ، لأنه بات قديماً . وأن تحلّ محلّه دنيا أخرى ، جوهرها الأساسي القناعة : أقبل المسيح على الصلب مطمئناً . ولم يأذن لتابعه بأن يدفن أباه ، بل قال له : «دع الموتى يحملون أمواتهم ، أمّا أنت فاحمل صليبك واتبعني!»
ـ تعني أن دنيانا يجب تبديلها .
ـ لا تنس أن المسيح ابن قرية وسليل رعاة . أثار الزيف براءته ، فرفض الدنيا التي

هو منها ... ولا تنس ، سيادة المحقّق ، أن دنيانا سوف تتبدل شئنا أم أبينا، وخير لنا أن نسبق الزمن كي لا يكون التبدّل طرحاً لم يكتمل ...

- لم تقارن بين عهد المسيح وأيّامنا هذة . هل نعيش نحن بالزّيف ؟

- أنتم لا تعيشون البراءة ...

- تعني أننا مزيّفون ...

- أنتم لا ذنب لكم ... المرحلة التاريخية كلّها مزيّفة . عصر الإنحلال ما انتهى بعد .

- ولذلك عمدتم إلى حزبكم من أجل التغيير ؟

- أعود فأقول لك . ليس من حزب .

ونادى الرائد الخفير فقال له : «ردّه إلى زنزانته.»

* * *

أخذ سليمان يعدّ أيامه بالثواني : مضى على حملها شهر ... شهر ويوم ، شهر ويومان ... وهو يتحرّق إلى سبيل للخلاص فلا يجد . خلال هذا الوقت كان يقف وراء الباب ينظر من الكوّة دون ونىً لعلّ رسولاً من قبل المحقق يقول له تعال .

كان يتوتّر كلما مرّ الديدبان ويقول في نفسه : « جاء الفرج ! » وما من فرج . صار يقضي نهاره كله واقفاً يتلصّص . وباتت تفاصيل يومه متشابهة حتّى التفاهة ... وضوى جسده ، وألمّت به أوجاع رأس حادّة .

طول زنزانة سليمان هو تسعة أقدام ونصف . قاسها آلاف المرّات وهو يغدو ويروح قتلاً للوقت . ولو أن الوقت كان يزداد مدة وارهاقاً لأعصابة . أما العرض فعرض مرتبة من الإسمنت يوضع عليها حصير وحرام ، وبينها وبين الحائط مسافة بعرض الإنسان . كان يحاول إحصاء الأشياء التي حوله وتعداد البقّ فلم ينجح لأنه كثير الحركة والصعود والنزول .

كانت هذة الزنزانة مخصصة لشخص واحد ، حتى إذا ازدحم السجن بمن فيه ، أنزلوا فيها اثنين أو ثلاثة أو أكثر . ولقد ازداد في تلك الفترة عدد السجناء ، غير أن المحقق ألحّ على ترك سليمان وحده فيها لأنه تعشّم فيه ضعفاً لم يره الآخرون وهو ضعف العشاق .

بقي سليمان وحيداً فيها ، والبقّ خدين وحدته ، ينهشه نهشاً عندما ينام ، إذا استطاع إلى النوم سبيلاً .

منذ أن بنيت لم يدخلها نور الشمس ، ولذلك كانت رائحة النتن تطغى على كل الإحساسات الأخرى ، ولو أنّها ما كان ينقصها شيء ، فقد كان فيها حنفيّة للماء وأزيد من ذلك مرحاض في داخلها ـ ويبدو أنه كان مسدوداً عندما أخذوه إليها فامتزجت رائحة النتن برائحته ، بمنظر البقّ الباحث صعوداً ونزولاً عن غذائة .

لايدري كم وقف حائراً ساعة دخلها أوّل مرّة ، وهو يتطلّع حواليه . نظر إلى فوق وتحت ويميناً وشمالاً ، وارتعد جسده رعباً من الوحدة . تمنّى لو أن

إنساناً أيّ إنسان ، ولوكان من مضطهديه يشاركه العدم الذي بات فيه . واكتشف أن الوحدة أقتل للمرء من أي تعذيب آخر .

أجهده الوقوف جامداً فتقدّم من المرتبة ، وإذا البقّ قطعان من ألوف مؤلفة، فتراجع ، وظلّ في إقبال وتراجع إلى أن أجهده الوقوف وأحسّ بنعاس ثقيل ، يكاد يغلق جفنيه ، فتقدم واضطجع لا يلوي على شيء .

وأخذ سليمان بعد اليوم الثاني يراجع في ذهنة ـ كلما عاد من التحقيق ـ ماذا يعني الضابط بكل سؤال ، وبخاصة بعد الجولة الأخيرة . فقد أدرك آنئذ التهمة التي يحوكها عقله ، وعرف أنّ ما يروّج له خياله بات قناعة عنده لا يتراجع عنها وأنه يريد. أن يثبتها باعتراف ما ، أو كان تحقيقه فاشلاً ، وعلى ذلك قرّر أن يدلي له باعترافات يخترعها ويربط بينها وأن يجعل من الإحتمال وقائع، كما قرّر أن يدفع التهمة عن رفاقه وأن يتحمل هو كل المسؤولية .

وكأني بالمحقّق وعى ذلك ، لأنّما يحدث اتصال لاشعوري ، من طول التحديق في المشكلة ، بين المحقّق والمتّهم ، يجعلهما يفكران بالأشياء نفسها تقريباً . وكان سليمان شديد التوتّر في تلك الأثناء ، يلّح بينه وبين نفسه على أن يقابل المحقّق ، وما يني يدق على باب الزنزانة ، ليقول للحرس أنه يطلب مقابلة ، وأن لدية أشياء جديدة لم يقلها بعد ، فيما كان ذاك يتريّث ويؤجّل، بالرغم من أنّه كان يشعر بالذنب لأنّه ترك معتقله يعاني القهر مدة طويلة دون استجواب .

ولما وصلت رغبة كليهما إلى هذا الحدّ ، أرسل في طلب سليمان . وقال له :

ـ والآن ياسليمان ، اسمع . حاولت مساعدتك ، فاتصلت برؤسائي كي أدعك حرّاً ثلاثة أيام ـ كما طلبت ـ تعود بعدها ، لكنهم أبوا عليّ ذلك ، إلا

بعد أن تعترف وبتّ أنت المسؤول الوحيد عما يمكن أن يحيق بخطيئتك .

* * *

كانت نوفة أثناء ذلك ـ تحرق الأرم غيظاً ، ويكاد يقتلها الشوق إلى سليمان ، وأخذت تلحّ على العشيرة بالإنتقال من مكانها . واختارت مكاناً قريباً من السجن ، لعلّ الريح إذا هبّت تأتيها برائحة جسد سليمان . لعل (طارشاً) ما يأتيها بخبر من عنده ، أو تسمع شيئاً عن حقيقة وضعه . كل من سألتهم كانوا يؤكدون لها فداحة جرمه ، وأنّ الإعدام هو أقلّ عقوبة ينتظرونها له ، وسكنت الريح طويلاً فما أتتها أية نسمة من وراء الجدران العالية .

والذي ألحّ أكثر من غيره على الإتيان بأخباره ابن عمّها حميدو ، فكان ينقلها مبالغاً فيها ألف مرّة . وأوغل في إثارة خوفها من الفضيحة . يوماً كان يقول لها : « ضربوه على نافوخه ! » وآخر : « اليوم خلعوا أظافره ! » وأكد لها في أحد تلك الأيام قائلاً : « اليوم أقعدوه على الخازوق ! »

وكانت هي تصدّق أخبار السوء ، وتتلوّى رعباً . الحمل نفسه زاد في مخاوفها . وعافت الأكل والشراب إلاّ ما سدّ الرمق .

لم تخل الدنيا ممّن يكذّب أخبار ابن عمّها . لكنّها في مثل حالها كانت أميل للتصديق وسحت دموعاً كثيرة . وفكّرت في أن تقتل نفسها . وأعدت لذلك السمّ . لكنّها كانت خائفة على من في بطنها . قالت لنفسها : « أنتحر. لكن لماذا أقتل الطفل ؟ إنه ابنه وهو وحده يحق له التصرّف بمصيره . » وازداد بطنها اتساعاً . ولاحظت أنها لاتستطيع إخفاء الحمل مدة طويلة ، فوافقت على الزواج من ابن عمّها.

ـ والآن ياسليمان هل اتخذت قرارك ؟

ـ نعم !

ـ هيا ! إرو لي كيف حدث كل شيء !

وأخذ سليمان يروي أحداث مجيد آباد الأخيرة في كثير من التفصيل ، فحمّل نفسه وشحوداً المسؤولية الأولى ، وهوّن ما استطاع عن رفاقه ، ولو أنّ أحداً منهم لم ينج من بعض المسؤولية .

* * *

باتت قضية شومان مؤامرة ضدّ أمن الدولة ، والتنظيم العفوي تنظمياً مدروساً لم يدع أمراً إلا وفطن له . روى له كيف بدأ وشحوداً يثير الشباب على الأوضاع القائمة في البلد ، حتى نفروا ويئسوا من الإصلاح ، وآمنوا أيماناً لايرقى إليه الشك والخوف بأن قلب الأوضاع الفاسدة جميعاً ، هو أمر لازب لا مرية بذلك . عندها بات ضرورياً وجود التنظيم الذي يقسّم الأعضاء إلى فئات يتولّى كل من فيها شأناً من شؤون التغيير .

وسرّ المحقق لهذة النتائج ، لأنها تزيد حظوته بين رؤسائه . وعلى ذلك قال لسليمان : « معك غداً ثلاثة أيام تعود بعدها للمحاكمة ، وأنا أعدك بكل مساعدة » .

وخرج سعيداً من السجن . وحين وصل إلى بيته اغتسل ولبس جديداً ، ثم خرج لطيته فسأل عن مكان مضارب بلقيس ، فعلم أنه مضى على زواجها

قرابة شهر .

لم يعرّج على مضاربها وآلى على نفسه ألاّ يذكر اسمها أبداً ، وأخذ يجمجم ويجرض بريقه ، كأنه على باب دوار قائل ... « كانت أميّ على حق ! » كان يقول ويضيف « الحمد لله أن العلاقة انتهت على هذا الشكل ولم أتزوّجها ... إن إرادة الله أوصلتني للسجن كي لا أبني بها ... إن اللّه معي!»

ثم اتجه إلى السجن يريد العودة إلى الزنزانة . لكن الإدارة لم توافق إلاّ بعد مضيّ الإذن . ورجع إلى بيته خائباً ، حزيناً . كان بحاجة إلى خلوة مع نفسه يحرّر قلبه فيها من العشق ويدفن غرامه في وجر من أوجار البقّ ... النّدم كان يأكل قلبه أكلاً .

وانتشر في مجيدآباد خبر اعترافاته ، فنفره الناس وازورّوا عنه . ومجيد آباد قاسية في أحكامها على من يخون حكمة وجوده فيها . والعلاقة التي حاكتها المرارة بين أبنائها .

جهد في أن يشرح الأمر ، فلم يحظ بمن يصغي إليه . حكم عليه لذاته بجرم الخيانة ، ولم يرجعوا عن الحكم ، ومن يدري فقد لايرجعون عنه أبداً. وصار وحيداً سليمان ، فأوى إلى أمه يروي لها حكاية آلامه وفشله من أوّلها إلى أخرها ، وختم حديثه قائلاً لها : « بتّ منفياً يا أمي في مدينتي ، وبين أهلي ... كان معك الحق في رفض زواجي من غجرية .»

كانت فاطمة أثناء ذلك ، تحرق الأرم غيظاً ، تجمجم وهي تصغي إليه حتّى إذا انتهى ، لم تقل شيئاً . اتجهت إلى السرداب ثم نزلت درجات ، ثم قالت له : « هنا سيكون مقامي بعد الآن . لا تكلمني في أي شأن من شؤونك.» وكأنها نفت نفسها هي الأخرى وبمحض إرادتها عن مجيد آباد.

• • •

في سني الخير وخصب المواسم ، تزهو مجيد آباد ، فتغدو عروس أطراف

الصحراء . نذبح الخراف للضيوف . لا ترتّد يدنا بالسكين عن رقابها إلاّ إذا أقسم الضيف أن كفى !

لكن ما أقلّ سنيّ الخير والمطر . نادرة كالرحمة ، ينام فيها الكرم . لا تعلن يد الكريم عن نفسها ، إلى أن يعتم وجه السماء ، وتعربد الرعود . ويملأُ الخير مراعينا .

تسمّى السنين بأسماء المواسم فهناك سنة بوعزّام التي بدأ فيها تسجيل النفوس وسنة الشريف فيصل وخيراتها لأن وجهه مبارك ، لكن هناك أيضاً سنة لوفه التي أخذت الأخضر واليابس ، والتي كثر فيها الدين بالفائدة ، كي يأكل الناس .

وأثرى المرابون ، وانتقلت الأملاك إليهم ، فأصبحوا أصحاب الشأن الذين يقررون في شؤون البلد ما يريدون . وعلى ذلك أنشأوا لهم نقابة للدفاع عن مصالحهم . ولقد قرروا نفي سليمان ثلاث سنوات عن الضيعة حماية لها من القلاقل . حتى إذا رجع للسجن وأنكر أمام المحكمة إفادته وكل ما قاله للمحقّق وأدلى بإفادة جديدة متوازنة ومعقولة ، حكمت عليه بالنفي ثلاث سنوات فجاءت النتيجة نفس حكم نقابة المرابين .

* * *

دعوني أتوقف قليلاً ، لأحدثكم عن سنة لوفة ، فهي من الدعائم التي تقوم عليها هذة الرواية . وماذا أقول عنها فآثارها سوف تبقى في عقلي وقلبي إلى الأبد .

كان الشتاء فيها قارس البرد ، والسماء خاوية ، خالية مثل معدة جائع ، والقمح نادر ورخيص ، لكن ما من مشترٍ ، ولقد نفقت الأغنام ، فكان أصحابها يأخذونها كي يرموها في الفلاة أكداساً ، والموسم الوحيد الذي بقي لنا تلك السنة هو جلود تلك الماشية بعد سلخ الوفيات .

وذهب الشتاء واستبشرنا ، بمجيء الربيع ، غير أنّه وفد علينا بارداً قاسياً . و ذهب موسم الخير الربيعي هباءً ، وهو الذي يبدأ عادة في شهر شباط . أما في سنة لوفة فإنه لم يبدأ ولم ينته . ظلّ الزمهرير يعصف ببرارينا منذ كانون الأول حتى منتصف آذار والريح تسفو غباراً ، في غير مواسم الغبار .

حذاء الطلاب في مدرستنا الوحيدة كان (القبقاب) . إلا من ندر . أطلق التلاميذ على لابسي الأحذية ، لندرتهم ، لقب أصحاب السعادة و كثيراً ما كان يسقط أحدنا في الصفّ ، إعياءً من جوع . والقمل كثير في الرؤوس ، لأن الصابون صار سلعة صعبة .

صار صالح الباشا نفسه نصف غنيّ ، ولا أقول نصف فقير ، فلم يبق من غنمه غير عدد لايؤبه له كثيراً . ولم يحزن ذلك سليمان ، فقد كان في شغل شاغل عن العالم كله بزواج بلقيس وحملها وتركه .

* * *

رافق هذة الأحداث مجيء المشايخ الحواة وسفر سليمان معهم . ولقد أنس في أبيهم الشيخ علاجاً من دائه ببلقيس . كانت بركة الشيخ تحلّ عليه فيخف لاعجه ، ويؤوب إلى الرشد في الساعات التي كان يمرّ فيها عقله بمرحلة تشبه الهستيريا . كان إذا مرّت يد الشيخ على جبينه هدأ ودعا لنوفة بطول العمر والنسيان ، وبأن ترزق أطفالاً جميلين مثلها .

لقد رقّ قلب الشيخ له ، وبات كثير التفكير فيه ، يدعو الله لعله يفرّج عليه .

قال في إحدى الساعات تلك ، التي يشرق فيها وجه الشيخ كأنما سكنه نور سماوي : « ياسليمان ! حظّك عظيم . أنت مختار ، لأن ترى ، ذات يوم ليلة القدر . لا أستطيع أن أقول لك متى . ومن بوسعه أن يتنبّأ بالأقدار إذا كانت عظيمة ؟ »

«ياسليمان إذا حانت تلك الساعة الكبرى فاحفظ عليك عقلك وهدوءك. أياك أن تسقط في التجربة . إن الرؤيا السماويّة ، تخلخل قوى الإنسان ، فحاذر من أن يهتز كيانك اكن على قدّ الرؤيا ، هادئاً ومنيراً».

« ياسليمان أمّك في خطر . إرجع إليها لعلّك تنقذها من الكرب الذي هدّها هدّاً ... أريد ألّا تخاف ياسليمان . رأيت في حلمي منذ مدّة ، أنّ أباك قضى نحبه . ولم أرو لك الحلم خشيةً عليك . أمّا الآن وأنا مطمئنّ إلى أنّ عقلك قد توازن ، فأحيطك به علماً . ولا تبتئس يابني . كلّنا إلى زوال . وما كنت لأدفعك للسفر لولا يقيني أن أمّك تعاني كثيراً . فهيّا إليها ! »

* * *

لم يهتز سليمان . لم يتحرك ... :كأنّه خشبة . ظلّ جامداً لا ينبس ببنت شفة ، حتى لقد عجب منه شيخه وظنّ أنّه لم يصخ السمع إليه .

سأله : « هل سمعت ما قلت ؟»

قال :« نعم ! سأغادركم إلى مجيد آباد منذ الصباح .»

والحقيقه أنه لم يكن هناك . كان غائباً ، ضائعاً. تبادر له أنه لم يحزن ، مع أنّ توتّر أعصابة بلغ أوجه . وبات على حافة الجنون .

حينما رجع سليمان في نهاية السنوات الثلاث ، وجد الدنيا تغيّرت في مجيد آباد . ماكان انتهى . ورأى في الأزقّة وجوهاً لاعهد له بها.

لم تكن السنوات الثلاث كثيرة ، غير أنها أكلت ما لا يقدّر من شباب وعنفوان جيله : ترهّلوا جميعاً . حلت في رؤوسهم أفكار غريبة ، هي أفكار الاطمئنان إلى أقدارهم ، والاستسلام لقدر الناس أجمعين . ذهب عهد الطموح، وحلّ محلّه عهد الرضى ، بكل سخفه وانسحاقه ، أراد أن يهزّ صميم الذين غادرهم وفيهم كبرٌ لا يستسلم ، فما تحرّكت غير الشفاه بالمضغ . وجد أحوالهم المادية تحسّنت ، وبات أكثرهم قادراً على أن يلبس ثياباً تقي من الحرّ والقرّ ، وعلى أن يأكل إذا جاع فقنعوا من الحياة بصفو الأكل واللباس والشراب .

وجد أن نشاطهم الإجتماعي انكفأ فصار زيارات للتعزية بمن مات ، أو للتهنئة بمن تزوّج . وجد الذين يموتون كثيرين ، والذين يتزوّجون أكثر ، وهيمن الحذر على العقل والشفاه.

لم يحاول هو أن يستنهض الهمم ، ولا أن يحفزهم لحياة أخرى فقد كان هو نفسه مشغولاً عن شؤون الناس بالتأمل في مصير الإنسان .

واستغرب أنه افتقد شومان . وجد رحيله غريباً عن مجيد آباد ، لأن قدرها لا يتمّ من دونه ، كانت مقاومته له تحفزه إلى الإيمان بنفسه ، وبطاقته

على الوقوف في وجه الشرّ . والغريب أنه لدى إعادة النظر فيه وجد لديه زوايا مضيئة .

كان شومان يرفض استخدام الآله البخارية في الزراعة ، ويلحّ على الاكتفاء بالشادوف والأقنية الرومانية . ينبه الناس إلى أن حفر الآبار واستخدام الموتورات ، يفرغ باطن الأرض من الحياة ، ولم يكن يستجيب أحد من الناس لهذا الرأي . كرهوا شومان فكرهوا كل ما جاء منه .

غير أن الأرض فرغت شيئاً فشيئاً من المياه وباتت هذه عزيزة ، حتى على الحفّارات الآليه .

أما المواسم فقد ذهبت هباءً .لا ريح صرصر ألمّت بها ، ولا نهبها اللصوص . غار الماء قصيّاً في الأرض فذبل الزرع واهترأ تحت لسع الشمس والعطش .

السائمة فرّت من برارينا وذهبت تبحث عن غذاء لها في أرض أخرى ، ونفق أكثرها على طرق الجدب ، قبل أن تصل إلى الأرض الخضراء . ومن يدري فقد لاتكون هنالك أرض خضراء .

واختفت مهارى الطراد ، فلا تجد لها أثراً . بعضها بيع لمرابيي سبق الخيل، وبعض اختفى ،كما لو أنّ قوة سرّية التهمتها .

أمّا البشر فقد تفرقوا في مجاهل الأرض سعياً وراء الرزق ، بعضٌ عمل في المدن بشقّ الطرقات ، دون أن يتساءلوا إلى أين ، وبعض في البنا ء . واحترف كثيرون حرفاً لا وجود لها في القرى . ولانفع فيها ، إلاّ أنّها تردّ غائلة الجوع .

وفاتح صالح الباشا ـ قبل موته ـ فاطمة بشأن الرحيل . قال لها :

ـ لم يبق لديّ غير قليل من المال ، فالأرض لاتنتج ، والأغنام هلك أكثرها ، أو بعناه بثمن بخس ، لأننا لم نستطع إطعامها . وأقترح عليك أن نذهب إلى إحدى المدن القريبة ، فأفتتح بما بقي لدي دكاناً نعيش منه .

ونظرت إليه فاطمة ، وكأنها تتفحّصه من أخمص قدمية حتّى رأسه وأخذت عيناها تهبطان وترتفعان ، كأنّها تتعرف على هذا الرجل للمرّة الأولى . قالت له :

ـ إذهب وأبناءك . أمّا أنا فباقية لا أريم ، لا أطيق فراق هذة الأرض مهما كانت الظروف . أنا مغروسة فيها كشجرة عتيقة . أموت إذا اقتلعت جذوري منها . نسغ الحياة في عروقي من تربتها ، حتى ولو صارت فقيرة . أنا ملزمة ببؤسها أكثر مني بسعادتها . إرحل أنت إذا شئت ، أما أنا فلن أفارقها حتى أغدو بعضاً من غبارها .

وأحسّ صالح أن في جوابها إصراراً لا يفيد معه الإقناع . وأخذت ثروته تذوب شيئاً فشيئاً . وهو يذوى معها .كان يرقب حبوه البطيء إلى القبر في كثير من الخوف والحزن . ولقد جرّب إقناعها غير مرّة في الإنتقال فما ازدادت إلا عناداً .

وذات يوم أصابه نعاس مفاجيء في غير وقت النعاس ، صباحاً ، بعد طلوع الشمس نهض من فراشه كي يذهب ليفتح دكانه ، لكنّه وجد أنّ همتّه أضأل من أن تمكن قدميه من حملة ، فاستلقى على فراشة ، وأغمض عينيه ، ثم لم يفتحهما أبداً .

* * *

حين رجع سليمان إلى مجيد آباد ، وجد نفسه وأمّه وحيدين . امّا أخواه وأخته فقد تزوّجوا ، وأخذوا يبنون حياتهم مستقلين ، ولو أنها لم تكن حياة رخاء وثروة .كل منهم كان يعمل في حرفة يجني منها معاشه ، دون زيادة . واقتسموا ما خلّفه الأب ، فإذا هو زهيد ، لا يقدّم كثيراً ولا يؤخر في شؤونهم . واتفقوا فيما بينهم ، على أن تبقى الأم في الدار تعيش فيها ما دامت

على قيد الحياة .

* * *

ظلّت فاطمة كما كانت في بيت أبيها تصرف دون حساب . لم تفقد شيئاً من عشرتها مع صالح الباشا . لم تأخذ عنه كيف يحسب حساب كل شيء ، وكيف يجمع المال قرشاً بعد قرش فيصبح بعد زمن ثروة .

كانت مولعة بالقهوة المرّة . تستفيق باكراً فتبدأ بإعدادها ، لا تسمح لأحد بمسّها ، فهي عندها ارستقراطيّة للضيافة . يجب ألا يسلمها صاحب البيت لمن ليس أهلاً لها فيعيث فيها .

وبعد أن تحضّرها ، وتصبّها في الدلة المصبّ ، تفتح باب الدار ، كي يشرب منها العابرون ، ولم تكن تريد أن تفتح مضافة بكل معنى الكلمة ، لأن المضافة وقف على الرجال ، لكنها كانت إذا مرّ أحد أصدقاء أهلها نادته قائلة : « تعال اصطبح بفنجان ! »

واستمرّت على هذة الشاكلة ردحاً من الزمن : السيكارة لا تفارق فمها ولا تلمّظ فنجان القهوة . حتى إذا نفذ ما بيدها قالت لسليمان : « أريد مالاً.» فهزّ بكتفيه وأجاب : « من أين لي بالمال ؟.»

كان متبطلاً ينفر من العمل . يفضّل عليه الحرية بلا حدود .

وذات صباح لا يختلف عن سواه ، إلا بأن الضيّق غلب على كل نفس، حتى السماء ضاق أفقها وبات مداها أصغر من ابتسامة تخرج من القلب ، رأى سليمان أمّه جالسة إلى منقل القهوة ، لكنّها لا تدعو احداً من العابرين لتناولها، فجلس قبالتها ودرج سيكارة وقال :

« هاتي فنجاناً ياأماه ! ». صبت له فشرب شفّة ، كاد يصفقها لولا احترامه لأمّه . قال : ما هذا ياأمّاه ؟

ـ ألم تذق الطعم ؟

ـ ليس هذا مذاق قهوة !

ـ معك الحق ، ومن أين لي بالقهوة ؟ إنّه شعير حمّصته ، وطبخته ، لعل فيه ما يذكّر بالقهوة .

عندها قرّر أن يشتغل . وحين فكّر في حرفة ما ، لم يجد أمامه سوى حرفة العتّال .

لم يتعلّم أية مهنة في حياته ، فما كان يعتقد ولا اعتقد أيّ من سكان مجيد آباد ، أن الأمور ستفضي به إلى الحاجة التي هو فيها .

حين رآه الناس ، والحبل على كتفه ، وهو يتجوّل من حيّ إلى حيّ يبحث عن عتلة يحملها استغربوا ، فلّما تبينّوا بعضاً من أمر إفلاسه ، شجعوه ونسوا موجدتهم عليه ، وكانوا معه كرماء ، وكان كلّ مساء يقدم لأمّة ما ربح ويقول لها ضاحكاً : « يلعن أبو الشعير ! »

* * *

واستمرت الأمور على نحو عاديّ ، لا تبديل فيه إلى أن جاء الغجر من جديد فنزلوا ـ في الأمكنه التي اعتادوا عليها ـ في ظاهرالبلد ، واتخذت الحياة كلها نهجاً مختلفاً . راجع الشباب سيرتهم القديمة من ذهاب مسائي إلى الخرابيش ، وحضور احتفالات الرقص والطرب .

ولم يذهب سليمان إليها أبداً ، لأنه بات في سنّ الحكمة الذي لا يجيز له التبذّل . ولم يكن لديه فوق ذلك ما يجود به . وذات يوم كان يحمل على ظهره حملاً ينوء به ، فإذا به وجهاً لوجه ، هو ونوفة صاح : «بلقيس ؟» وأنزل حمله .

ـ نعم ! قالت

ـ ماجاء بك إلى هنا ؟

ـ قدماي والحمار ! وحساب لك بذمتي يجب أن أؤديه لك ...

ـ حساب ماذا ؟

ـ عرفت ما حلّ بك ، فجئت أعيد لك أسواريك الذين أهديتني في الزمن الماضي ...

ـ الزمان الماضي ؟ جننت ؟ زماننا ما زال في ريعانه ...

ـ لا ! كلّي عقل وحكمة ! وزماننا تغيّر وهرم كما هرمنا ...

ـ وأحوالك ؟كيف أحوالك ؟... قالها في لهفة مشتاق حييّ!

ـ جيدة . ابنتك صارت صبية .

وخلعت الأسوارين وناولتهما له .

ـ هل هي جميلة مثلك ؟

ـ آية من الآيات !

ـ هل تعلم أني أبوها ؟

ـ لا ! إنها تظنّ أن حميدو أبوها .

وأخذ الإسوارين ووضعهما في جيبه .

* * *

نتوقف هنا عن السرد كي نلمّ ببعض التفاصيل التي حصلت في حياة سليمان .

بعد أن رجع من عند شيخه ، وجد رفاقه القدامى على موقفهم منه ، من صدود يمازجه الكره ، وحاول من جديد أن يشرح لهم كل ماحصل له ، فلم يؤثر حديثه فيهم ، ولا غفروا له ، فقد اعتبروا تخاذله خيانه ، والمبررات التي زعمها خذلاناً ، ولم يثن منهم عما كان فيه غير محمد العرجي ، الذي وسع له في دكانه ، وأفرد له فيه مكاناً ، لا يفرده إلاّ لمن يجلّ.

وكان سليمان ـ على عادة أهل مجيد آباد ـ يأتي كل صباح فيجلس عند العرجي مع بعض الزوّار ، دون أن يختلّ عمل هذا من بيع أو شراء . وكان

يقضي الوقت في مختلف الأحاديث التي تتناول السياسة وأخبارها ، والمدينه وأحداثها ، والعائلات ومشاكلها حتى الظهر ، فينصرف كل من الزوار لطيّته .

حين نفذ ما عند فاطمة من مال وآلت إلى الإدقاع ، لم يجد سليمان من يشكو له أمره غير محمد العرجي . وأراد هذا أن يساعده بشيء من المال فرفض فقال له محمد :

- كيف تريد أن أراك في ضيق ولا أمدّ لك يد المساعدة ؟
- ساعدني بطريقة أخرى !
- قل وأنا أنفذ ...
- أشتغل عندك ...
- بماذا ؟
- أنت تتاجر بالألبان ومشتقاتها ، ولا بدّ لك من إنسان يحمل البضاعة إلى أصحابها ، فاجعلني عتّالاً عندك ؛ أعملُ في هذة المهمة ...
- أنت ياسليمان ؟ ألا تجد ذلك عليّ صعباً ؟
- أبداً ... هذة هي الطريقة التي تنقذني بها ، دون أن تحرجني ، فأعمل عندك دون منة ...

واتفقا على ذلك ، وتحوّل سليمان من متحدّث وسامر في الدّكان إلى عتّال يجلس عند الباب ، ينتظر زبوناً يحمل له أشياءه .

* * *

لم تكن حرفة العتال في مجيد آباد مجزية في تلك الأيام . كانت تمكّن سليمان من شراء القهوة والتبغ والفحم لأمه ، وبعض زاد يقيهما الجوع .أما الثياب فكان عنده وعندها الكثير من أيام العزّ .

لم يعامل محمدٌ سليمان معاملة السيّد لأجيره ، وإنما معاملة فرد من عائلته، فيقدّم له ما تمكنه أحواله المادية من تقديمه من هدايا ، إذ ينتهز الأعياد

ليرسل له البنّ واللحم والأرزّ إلى الدار . وأصبح أهل بيته يعدّونه منهم : زوجة محمد تدعوه بأخي وأبناؤه بعميّ . وكان تصرّف الأبناء تجاهه تصرّفهم تجاه عمّ حقيقي .

* * *

لم يوافق سليمان على أخذ الإسوارين من بلقيس من أجله وأنما من أجل نيّة أضمرها . قال لها : « اليوم سأذهب مساءً إلى مضاربكم ، كي أرى ابنتي!

- افضل ألا تذهب . سوف تتعقد الأمور اذا فعلت . دع الأشياء عند هذا الحدّ .

لكنّها لم تستطع أن تثنيه عن رغبته . سألها : « ما اسمها ؟ »

قالت : هلا !

فأحسّ بنار تكويه من أن يراها كل الناس إلا هو،وهو الأحقّ من كلّ من خلقه الله بذلك . وفي المساء يمّم شطر الخرابيش دون أي تردّد . وغنّت هلا أغنية حبّ قديمة ، لا يغنّيها الغجر ، إلا إذا بلغ بهم الوجد أوجه ، فصفّق لها سليمان واستعبر وظلّ على هذه الحال ، في سعادة باكية ، حتى منتصف الليل. فقام كما كان يفعل أيّام كان من أصحاب اليسار ، وأخرج الإسوارين من جيبه، ومدّ يده إلى ذراع ابنته فألبسها أياهما . عندها فحسب أدركت بلقيس لماذا وافق على أن يأخذهما منها وقال لها : « ياابنتي لا أستطيع أن آتي دائماً إلى مضاربكم ، وأنت أقوى مني همّة . عندما تذهبين إلى المدينه مرّي بدكان محمد العرجي ، فقد تجديني هناك وأراك .»

تساءلت هلا بينها وبين نفسها عمن هو هذا العجوز الحزين . لم بكاؤه ؟ لماذا هديته السخيّه ؟ أمن عادة الشيوخ أن يبكوا إذا سمعوا صوتاً جميلاً. وأحسّت بشيء خفيّ يجذبها نحوه ، وبوجيب في القلب يشبه وجيب العشّاق. ولو أنها لم تكن عاشقة.

سألت أمّها بعد أن استودعهما سليمان الله قائلة : « ماشأن هذا العجوز ياأمّاه ؟

ـ ماذا وجدت فيه ياابنتي ؟

ـ إنه رحمة وعطف . هل رأيت ياأمي في عينيه ، بعد أن توقف عن البكاء ، دمعتين حائرتين ، لاتنزلان على الوجه ، ولا تعودان إلى القلب ، تائهتين ، ضالتين كضلال قلبه هو ؟

ـ رأيتهما قبل سنين عديده ، عندما كان شاباً . كأنهما ما تبدلتا . كأنهما رافقتاه عبر تجربته الطويلة . حزرت منذ تلك الأيام أنّهما تعبّران عن حزن قاسٍ وعميق ، مع أنّه كان في تلك الأيام غنياً ، تبدو عليه السعادة . منذئذ عرفت أن سعادته كاذبة ، وأنه يخفي في عمق القلب روح شهيدٍ استسلم لموته راضياً شاكراً.

ـ لم لا ندعوه كي يأتي إلينا دائماً ، لعلنا نغرس الفرح في فؤاده ...

ـ ياابنتي ليس الفرح من قدر المختارين ... إن الدمعتين في عينيه تشهدان أنه من الأبرياء الذين اختارتهم العناية لشهادة عظيمة ، بلا ثمن .

* * *

وانتشر في مجيد آباد خبر زيارة سليمان وهديته لهلا ، واستغرب الناس هذا الكرم منه وهو ـ الآن ـ الفقير الذي لا يشبع الزاد .

وسمعت فاطمة بالأخبار ، فثارت للأمر وقالت له :

ـ أنت ولد ضائع . تعطي ابنة الزانية أسوارين من ذهب بدلاً من أن تبيعهما ، وتنشيء لك تجارة تعيش منها ؟ أبوك بدأ بأقلّ من ثمن سوارين ، فصار أغنى أهل البلد . وأنت سدّ الله في وجهك طرق العيش ، فأعطيتها للغجرية ...

ـ إنهما لأمها . وما كنت أتاجر بما ليس لي ...

ـ ألست الذي أعطيتهما لها في أيام جهلك

ـ صحيح ، لكني لم أعطهما لها كي أستردهما ...

ـ أنت ابن لانفع يرتجي منك . ليتني ولدت كرّاً ، بدلاً منك ، كنت أستفيد بثمنه بعضاً من مال .

لم يحر جواباً سليمان ، وخرج إلى عمله لا يلوي على شيء . ونزلت فاطمة حتى أسفل الدرج . وامتنعت عن القعود إلى باب الدار ودعوة شاربي القهوة إليها ، فضّلت السرداب فهناك لا يراها أحد . اعتزلت كل البشر من خشية الشامتين وأصيبت بدوار فجاء لها ابنها بالطبيب الذي قال لها : « إنه الضغط ! » ووصف لها دواء أتي لها به سليمان . لكنها قالت : « أنت مجنون! أنا أشفي نفسي بنفسي . الأطباء لا يحسنون غير قبض مال الناس زوراً وبهتاناً.»

وجهد في إقناعها بأن تتناول الدواء فلم تصخ له .كانت تعاند المجتمع الذي سحقها وتهزأ منه ، فلا تتسلم له بأية قناعة من قناعاته .كفرت بكل قضاياه ، حتى ما كان يضمن لها البقاء على قيد الحياة . والحق أنّها كانت تنتحر ، بطريقتها وهي أن تعاند الحزن حتّى تنتصر عليه أو يودي بها .

كانت إذا أصيبت بالدوار ، تغتسل بالماء البارد ، وتشرب فنجاناً من القهوة فيبدو لها أنّ تلك حادثة عابرة ، وأنها شفيت من آثارها . وأكثرت من أكل الثوم كما كانت تفعل أمّها ، عندما ألمّ بها المرض نفسه قبل موتها ، ولم تكن تهمل قراءة بعض الرقى التي علّمها إياها الشيخ حسن .

حزرت فاطمة شيئاً واحداً ، وهو أن الحزن هو الذي يرمضها وأن ليس من سبب لمرضها سواه . وحاولت أن تشفى منه . لكن من يشفى من الحزن ، حتى ولو ذهبت أسبابه المادية ؟

وأخذت تيبس كغصن ، وتتغضّن شيئاً فشيئاً . وذات يوم من كانون لتلك السنه ، أغمي عليها ، وسقطت على منقل القهوة ، بعد أن ذهب ابنها

إلى عمله ، فانقلب وأخذت جمراته تعيث في ثيابها حتّى اشتعلت ، ثمّ في جسدها فاستفاقت وصاحت ، لكنّ أحداً لم يسمع صراخها ، وخرج الدخان من فتحة السرداب ، وانتبه الجيران وأخذوا بقذف النار بالماء والتراب . لكن شيئاً لم يؤثر في اشتعالها . وقد جاء المنقذون متأخرين كثيراً .وذهب من أخبر سليمان ، فجاء يعدو . وتكاثر الناس والماء والتراب ، لكن النار لم تهمد إلا بعد زمن كان بعضه كافياً لموت فاطمة .

نزل الناس إلى السرداب فما وجدوا أثراً للأم . كانت هنالك دلة قهوة فارغة وفنجان محطّم ومنقل ، وآثار حطّتها وزنّارها ، ثم لا شيء ، حتى ولا عظمة تنبيء أن إنساناً كان هناك . لم يقل سليمان غير جملة واحدة : «استرحنا من حفر القبر» ورجع إلى دكان محمد العرجي كأن شيئاً لم يحدث، سوى أن شعره انقلب من أسود فاحم إلى مشرب ببياض أكثر من نصفه ، وجحظت عيناه ، وضؤل صوته كأنه يغصّ بدموع كثيرة وكان كل ذلك شواهد على المرارة التي يكابدها قلبه .

* * *

وفي المساء نزل إلى السرداب ، ومعه قنديل صغير ، فشعر أنه ليس وحيداً فيه ، أن كائناً ما ، حياة أخرى تعيش معه هناك .كأنّ أحداً يريد أن يتكلم فلا يخرج الصوت ، بل لقد خيّل له أنّه سمع بعض همهمة ، وأنه أحسّ بوجيب قلب قريب منه ، يكاد يهمّ بأن يعانقه بيديه .

قال : ربما كانت أمي على قيد حياة ، من نوع آخر .

تعلّق أولاد محمد العرجي بعمّهم سليمان تعلقاً شديداً ، وبخاصة كبيرهم قاسم . صار يذهب معه مساءً إلى بيته فيساعده بشؤون المطبخ وتنظيف البيت وإعداد المتّة ، فلقد رفض سليمان أن يذوق القهوة بعد رحيل أمّه.

كان يحدّث قاسماً عن كلّ ما تعلّمه من شيخه ، ويجرّب تلقينه وتدريبه لعله يكون وارث هذا العلم . صار مثله يستطيع القبض على الحيّات ، ويقرأ العزائم ، ويشفي لسعة العقرب بكل يسر .

قال قاسم : ما دمت على كل هذا العلم ، لم لا تدعو الله كي يرزقك بعضاً من مالٍ تعيش منه وتأمن غوائل الفقر ، وتحتاط للشيخوخه ؟

فأجاب سليمان : ولماذا المال القليل ياقاسم ؟ إمّا مال نغدقه على كل فقراء العالم أو عوز نستطيع العيش به . تريد أن أطلب من الله رزقاً لي وحدي؟ ألا تبالي ببؤس الآخرين ؟ أنبأني شيخي أني سوف أشهد ليلة القدر ، التي تستجاب فيها كل الدعوات ولقد أعددت دعائي : ياربّ ارزقني ما أعيل به كل فقراء الدنيا . وفكّر ياقاسم بالسعادة التي يحظى بها من يذرو المال على الفقراء ، في سخاء نهر جارف .

ـ كل فقراء الدنيا ؟

ـ نعم !

ـ أليس هذا كثيراً ؟أليس خرقاًلقواعد العدالة الإلهية ؟

ـ إن عطاء الله هو على قدّ كرمه ...
ـ وأنت واثق من أنك سوف تشهد ليلة القدر ؟ لم نسمع بأحد رآها . أنا أشك بها .
ـ أمّا أنا فأثق بها وثوقي من وجودك هنا ! أنبأ بها شيخي ، وما أظنّه يخطىء كان يرى بعيداً ، ما لا يراه إلاّ الذين اكتشفوا السرّ . ولا أظنّه يكذب . قال لي: « ياسليمان أنت منذور لأمر عظيم . وأتساءل ما هذا الأمر . أنا لا أشك بذلك ، لكن الأمر يحيّرني ، فليس في حياتي أي وعد بتغيرّ الحال ... تسير أموري من سيء إلى أسوأ ... ثيابي اهترأت وباتت قذرة . أحسّ أن كثيرين ممن كانوا يحبونني وينعمون برفقتي باتوا يقرفون من منظري...أقول بيني وبين نفسي : ربما يعلو شأني إذا انتقلت إلى بلد آخر ... لكن إلى أين ؟ كيف أغادر وأنا من تراب مجيد آباد ... ألصق بها من التصاق الجفن بالعين ... يعنيني البقاء فيها حتىّ الموت ، أكثر مما يعنيني علوّ شأني ... يبدو لي أحياناً ياقاسم أن زمن المعجزات ولّى . وأنا لا بدّ لي من معجزة حتّى أحقّق ذاتي ...
ـ أنت ترى ما لا يراه الناس ... ولا تنس ياعمّ أنك شاهد صادق ... وربما الشاهد الوحيد على تحوّلاتنا ... يكفيك أنك ضدّ الطغيان . إن الشاهد على التحوّل يظلّ مكدوداً ، متعباً ، لأنه يحمل كل أرزاء الإنسان وبؤسه .
ـ لكن عيون الناس مقلوبه . تعثّرت قدرتها على الرؤيا ، من الطمع والحسد والأثرة . إنهم ينظرون فلايرون ، لقد أجهدني التفكير في الأمر الذي أنا مدعوّ له . هل أنا منذور لخلاص البشر ؟ هل خلاص البشر جميعاً ممكن ؟ أسئلة لا جواب عليها ياقاسم ... منذ أن وجد الإنسا ن على الأرض وهو يطرح على نفسه هذة الأسئلة . وسوف يطرحها إلى أن يزول عن وجه الأرض ، وتبقى الأسئلة الخالدة دون جواب خالد .
ـ لماذا إذن وجد الإنسان ، مادام لم يجد في كل عصوره جواباً خالداً ؟

ـ لم يوجد الإنسان كي يجيب ، بل ليحار إذ يتساءل . هذه الحيرة هي مبرّر وجوده ... هي العبث !

* * *

وذات صباح لايختلف عن سواه ، جاءت هلا تزور أباها وقد حملت له بعضاً من لبن . وكان قاسم جالساً إليه يتحدثان .

لو رأى القارىء هلا وقاسماً ، لما تردد في القول : هذه لهذا . كأنهما فلقتا ثمرة واحدة . كلاهما جاء هذه الدنيا صدفة . وها هما يلتقيان . كلاهما مثل آية . كل منهما شطر من بيت بشعر واحد : قوام سامق وعينان خضراوان واسعتا الرؤيا . لكل منهما عينان تشرفان على هذا العالم من أفق أعلى من أفق البشر : كأنهما تستعرضان الخلق استعراضاً.

وما لنا نطيل في وصفهما . يكفي أن نقول إن شيئاً ما لم يكن ينقصهما: جمال ورقّة طبع ، وتعالٍ نبيل ، كأنهما من ورثة العروش .

التفت سليمان إلى كل منهما فكان أوّل ما فكّر به : «لم لا يتزوّجان ؟»

ورنت هلا إلى قاسم وقاسم إلى هلا ، فأحسّ سليمان في أنفه رائحة لهيب ودخان ، خارجين من كيانهما ، كي يلفّ العالم كله بالشوق . وتاقت إليه كما تاق إليها . لكنهما صمتا استحياءً . وبقيت مع سليمان حوالي نصف ساعة ثم استأذنت بالعودة إلى المضرب .

* * *

بعد عدة أيّام رجعت هلا إلى زيارة أبيها وهي تجهل حقيقته . شيء ما كان يشدّها إلى هذا الكهل . لم تكن تعرف ما هو . عندما تغيب عنه مدة طويلة ، يهيمن على قلبها لاعج تجهل سرّه . أتت ومعها صحن من القشطة . كانت تحس بالأسى إذا حضّرت أمها زاداً طيّباً ولم يأكل منه ... لم تجده . فقد ذهب ينقل بضاعة إلى شاريها . قال لها قاسم : « بوسعك أن تنتظرية هنا!»

قالت : « مستعجلة ! »
ـ«اذهبي إلى بيته ، فضعي هديتك له هناك إذن!»
ـ لا أعرف بيته .
ـ أنا أدلّك عليه .
وذهبا معاً . وما أن دخلت حتى أحست بالأسى يعصر قلبها ، لما رأته من بؤس ، فسألته : « ماهذا ؟ »
ـ السرداب الذي احترقت فيه أم سليمان .
نظرت إلى داخله ثم نزلت وتبعها قاسم ، كان مظلماً يزداد ظلامه كلما نزلا درجة . وخافت السواد فأخذت تعتمد على قاسم . كأنها اكتشفت أنه سندها . عند الدرجة الثالثة أو الرابعة التقت اليدان . أمسكت بيده وضغطت عليها ، وضغط هو . عند الدرجة السادسة وضعت رأسها على كتفه ، وأحرقت أنفاسها وجنته ، كما أحرقت أنفاسه وجنتها عند الدرجة الأخيرة ، توقفا . وحزرا فجأه أنهما كان يمكن أن يضما القشطه في ألف مكان دون المجيء إلى البيت . لكن إصرار القلب يعمي العين والعقل . وتعانقا في نهم يودّ لو تنتهي حياتهما عنده وقبّل بعضهما بعضاً ، كما لو كانا مزمعين على فراق طويل ... وبعد قليل آلت هلا ، إلى ما آلت إليه نوفة مع سليمان .
كأنّ ذلك لم يكن سوى إشارة خفيّة إلى أنّ دنيا سليمان يجب أن تبدّل سيرتها مرة أخرى شبيهة بالتغير الذي حصل بعد موت أمّه . فلقد أحسّ يومئذ أنّ سبل الحياة ضاقت به ، فصارت السرداب الذي قضت فيه . كل عاداته تحوّلت. عقله صار آخر ، وبات حكمه على الأشياء حكم أهواء تتميّز عن بعضها بما يكرهه أقلّ أو أكثر . أمّا حبّه فقد اختفى .
صار ولا يدري لماذا ، يطيل المكوث في السرداب . يصلّي إذا أحسّ برغبة في الصلاة ، ويتأمل فيه عندما تطّل عليه أفكار جديدة . ويعزف على

ربابه ويغنّي . وعندما يشتهي شرب العرق يشتري بطيخة ومازة يتناولهما في غالب الأحيان وحيداً . لقد حنث بوعده لشيخه ألاّ يعاقرها أبداً . وما ذلك إلاّ لأنه يحسّ إذا فعل أنّ كثيراً من أثقال الدنيا خفّت عن كاهله .

في تلك الفترة أحسّ ـ دون أن يدرك السبب ـ بيد تقبض على خناقه وتجهد كل جسده . قال : « اللّهمّ اكفني شرّ هذا الإحساس ! »

ما أتمّ جملته إلاّ وبدت بلقيس مع أنّها لم تزره أية مرّة بعد أن عادت إلى مجيد آباد . وأدرك من وجهها أنّ شيئاً ما يزعجها . قال : «خير إن شاء الله!»

جلست وتناولت منه كأس متة وهو ينظر إليها ، يتحرق لمعرفة ما جاء بها إليه . وما أن انتهى السلام حتى أخبرته ـ دون مقدّمات لأنها لم تكن قادرة على تنميق حديثها ـ عما كان من هلا وقاسم . اسودّت الدنيا بعينيه واعتبر نفسه مسؤولاً عن هذه الفعلة وتساءل قائلاً : « ترى ألم يلعب الإرث لعبته ؟ »

لكن ما الحل ؟ أحسّ أنّ الطرق انسدّت فجأة أمام عينيه . وضرب أخماساً بأسداس واتجه الى الله بصلاة بكى فيها كثيراً قائلاً : « إلهي لماذا اخترتني لكل هذا العذاب ؟ إن بعضاً منه يكفي أمّة من الأمم ! »

وأدى به التفكير ، إلى أن يفاتح محمداً بالأمر ، ويقترح عليه تزويج الشابين من بعضهما بعضاً . وشرح لبلقيس ما ينوي فعله فوافقت .

* * *

قال محمد بعد أن أفضى إليه بجلية الأمر : «وماذا تريدني أن أفعل أنا؟»

ـ نزوّجهما .

ـ لم لم تتزوج أنت من أمّها ؟

ـ أنت تعرف الظروف ...

ـ أعرف الظروف ، وأعرف أنه كان بوسعك أن تصنع شيئاً ما . أن تسير معها منذ البدء في طريق الزواج على الأقل .

ـ أبي وأمّي لم يكونا يريدان .
ـ ومن قال لك أن أم قاسم وأباه يريدان ؟... على كل حال عذرك أقبح من ذنبك ...

وأحسّ سليمان أكثر من أي وقت مضى أنه كان مذنباً ، وأنه كان بوسعه أن يصنع شيئاً...

قال : ومانفعل الآن ؟

أجابه محمد : بصراحة لا أدري ...

ـ إنها الفضيحة ...
ـ الغجر لا فضيحة لديهم . إنهم يعرفون كيف يسيّرون أمورهم ...
ـ وما في الغجر يامحمد ؟ ألا تلّم بتاريخهم ؟ ألا تعلم أنهم في أيام المأمون ، كادوا يحتلّون بغداد ، ويهيمنون على الدولة كلها ، لولا أن أتاهم المعتصم ـ بعد حرب استمرت سبعة عشر عاماً ـ بجيش لم تعرف الدولة العباسيه مثله عدداً ولا عدّة ، فكسرهم إثر قتال ليس أشرس منه ، ثم نقلهم إلى حدود الدولة، فأنزلهم في البحر فدخلوا بلغاريا ورومانيا وعاشوا فيها غرباء ينتقلون من مكان إلى مكان حتى هذة الساعة .

امّا من بقي منهم فقد حرّم عليهم ركوب الخيل ... هل رأيت في قوافلهم مهراً واحداً ؟ ومنعهم من نصب بيوت من الشّعر فاستعاضوا عنها ببيوت من القنب .

وقد زالت الدولة التي فرضت عليهم هذة الشروط ، لكنهم حافظوا عليها حتى هذة الساعة ، لأن تقاليد الحرب ما زالت في خيالهم : المغلوب يظلّ مغلوباً إلى أن يصبح دولة ... شيء لم يستطيعوا تحقيقه فظلّوا على ذكرى غامضة ، لكنها لا تقدّم في شؤونهم ولا تؤخر .

بعدها استعاضوا عن حلم الدولة بأحلام صغيرة دافئة فعزفوا وغنّوا

ورقصوا حتى إذا ناموا ذهبت تلك الأحلام كغمامة صيف .

لا تنس يامحمّد أنّ أيّ شعب تنقطع الصلة بينه وبين إقامة دولته يغدو شعباً خصّياً ، مبتور الأصالة ، حربه مع غيره تصبح احتيالاً على القدر ، كي يحافظ على حياته ... أفهل يحقّ لنا نحن الأناسي المؤمنين بقضية الإنسان وتحريره من ارزاء التاريخ أن نتعامل معه على ما تقول .

ـ لاأجد طريقاً أخرى للتعامل معهم .

ـ لكن أنا صديقك يامحمد ...

ولم يفهم محمد من ذلك أنه يلمّح إلى أنّ هلا هي ابنته فقال : « أنت صديقي وأحبك . لكنّي لا أريد هذا العار لعائلتي ...»

قال سليمان بينه وبين نفسه : كل العواطف إذن هباء ؟ الصداقة والمودة والأخوة ليست إذن سوى كلمات نلقيها بأذن الريح ، فتذهب بها أوّل هبة ريح؟ علاقة الإنسان بالإنسان هي إذن أوّلاً وآخراً شرّ . وما بقي نفاق كاذب .

وأحسّ بأنّ النار تكوي قلبه ، وأنّ تبدّلاً خطيراً وعارماً نفذ إلى كيانه . وتراءى له شيخه في صورة تكاد تكون واضحة وكأنه سمع منه كلمة :« لا ياسليمان !» لكنّه لم يهتّم ولم يرعو ... لقد صار إذن إنساناً آخر قميناً بكل الشر ... جفّ الخير في وجدانه . حقد عارم لا شفاء منه بغير الإنتقام انسرب سريعاً إلى كل كيانه . واستأذن محمّداً في الذهاب إلى بيته بعد أن أضمر شيئاً .

لم ينقطع قاسم عن زيارة معلمه . على العكس أمعن فيها ، لأنه كان يطرب لحديثه وإنشاده وعزفه ويشاركه صلاته وتأمله . وسهر سهرات طويلة في السرداب ، وذات يوم قال سليمان لصديقة الفتى :

ـ أرى أن التأمل يجب أن يكون في الطبيعة لا في سرداب كالقبر ...

ـ لكنه سرداب معجزة . ألا ترى إلى هذا البصيص الذي ينزّ في جنباته عندما نتأمل ؟

ـ إنها أمّي تجيء كي تشاركنا !

وفغر فاه قاسم مستغرباً سائلاً : « أمك ؟»

ـ نعم أمي ! إنها لم تمت . ذهبت فحسب . إلى أين لا أدري ! ذهبت لهباً ولكنها تعود بين الحين والحين بصيصاً .

وأحسّ قاسم بالخوف من الأشياء الخارقه ، ولقد ناقش الأمر بينه وبين نفسه ، فلم يكذّبه كل التكذيب ، ولا صدقة كل التصديق . لكن ضيقه بات شديداً حين يدخله . وهذا ما توخّاه سليمان .

وأعلن الفتى لمعلمه عمّا يحس به من إرهاق في سردابه فقال هذا : « الحقّ أقول لك أن التأمّل يجب أن يتمّ في الطبيعة ، وفي الأعالي لا المنحدرات . وهذا مكان تحت الأرض . هيّا غداً ولنذهب إلى جبل الخضر حيث الجامع الذي كان يصلّى فيه في قديم الزمان « إخوان الصفاء »

وذهبا إليه في اليوم التالي وارتقياه في مسرّة تشبه مسرّة الحاج . وكان

التأمل رائعاً ، بعيد الآماد . لكن قاسماً احتجّ لأنهما لم يتناولا شراباً .

قال له سليمان : « لا تنس أننا في مسجد جامع . »

ـ وما نفعل كي يتم التأمل في شروط أفضل ؟

ـ نذهب إلى شماميس ، ونتأمل في أعلى السفح ، عند الهوّة .

لقد وصل بقاسم إلى اختيار المكان الذي قرر فيه تنفيذ خطتّه .

* * *

كنا ونحن صغار ، نتخيّل أن قلعة شماميس مأوى جان أو موتى استيقظت أرواحهم . وكان يصيبنا الدوار من مجّرد النظر إلى الجبل العريض الذي تقتعد القلعة قمته .

وكبرنا ونحن نرهبها ، لأن شيئاً لم يثبت لنا أن غادرها الجنّ أو الموتى .

بناها القائد الروماني شمسفرام . وكنا نعتقد أنّ اسمها مشتقّ من الشمس وأعجب ما فيها أن قيل لنا أن أسفلها متصل بالعين الزرقاء ، على مسافة تبلغ المائتي متر . أوليس هذا عجيباً ؟ كلّنا كنا نبدي أسفنا لانقطاع الصلة بين العين والقلعة ونتلهّف لعودتها لعلّنا نرى ذلك بأعيننا .كنا نعرف أن الحجارة التي يرميها المتنزهون هي سبب القطيعة . لكننا كنا نقذف بما تصل إليه أيدينا من حجارة .

كنا إذا ارتقينا الجبل واجتزنا الخندق الذي حولها وصعدنا السفح الذي يليه . نحبو حبواً حتى نصل إلى بقيّة بابها . قطر البئر الذي يتوسطها يبلغ أكثر من عشرة أمتار ... أمن المعقول أن يوجد بئر بهذة السعة ؟ تصورنا أنه لرمي المحكومين بالموت في قعره ، وأنّه مخيف وراعب ، وأنّ أحدهم رمى فيه ديكاً أحمر الريش لامعه ، فخرج من العين الزرقاء أبيضه ... لقد شاب المسكين مما لقي من أهوال : حيّات عمرها أكثر من ألف عام ...سعالى ...عفاريت ... وأيضاً جنّيات . كنا نقعد على حافته فنرمي حصاة وننصغي ... كانت ترتطم

بالجدران مرات ثلاثاً قبل أن يلفّها صمت الأعماق السوداء ... بعد سنين صارت ترتطم مرتين فحسب ... في آخر مرة رأيته ،كانت تظهر للعين المجرّدة الحجارة التي رماها المتنزهون .

لقد بنيت مرات عبر التاريخ ، آخرها في عهد الأيوبيين . كان القصد من بنائها أن تكون ديدبانا يحرس الصحراء من هجوم مفاجىء ... ظلّت حتى الساعة ديدباناً دون حرس ، تسهر مع الصحراء ، مثلما نسهر نحن مع جوزة المتة أو فنجان القهوة المرّة .

ومادمنا في الحديث عن القلعة ، لا بدّ لنا من أن نعرّج على العين الزرقاء .

يبدو أن أمير مجيد آباد ، حين كان اسمها آخر ، في أواخر العصر الهيلينيستي عشق أميرة أفاميا... ترى هل كان يعرفها أم أحبّ دون أن يرى ؟ وزيّن له الوجد أن يبعث إليها برسالة حبّ تبقى أغرب ، وربما أخلد رسائل العشق في التاريخ . كانت مجيد آباد ريّاً بالمياه وأفاميا ظمأى ، فأمر بحفر قناة تمتد من ديارنا إلى ديار الأميرة . طولها ينوف على مائة وخمسين كيلو متراً . عبرت القناة الوديان والهضاب بئراً بعد بئر ، كأن خلداً هائلاً حفرها . من كل بئر نتفة ينبوع ، تنضاف إلى الذي يليه ، وهكذا حتى تغدو نهراً صغيراً يسيل في مجرى بعرض مئة سينتمتر تقريبا وعمق يتراوح بين متر وثلاثة أمتار . وتلك أنجع طرق الريّ في السهول التي يندر فيها الماء .

ولقد تأخرت رسالة العاشق كثيراً بالوصول إلى الأميرة ، ولا ندري أشربت من مائنا ، أم قضت قبل ذلك هي وأمير الوجد.

والعين الزرقاء هي جزء من تلك القناة ، فيها زرقة السماء وصفاؤها وحيرة صبابة العاشق وحزنه .

* * *

وتواعد سليمان وقاسم على أن يسهرا في الليلة التالية في القلعة ، وحضّر

قاسم كل عدة النزهة التأمليّة . وما أن حلّ المساء حتى اتجها إلى غايتهما .

منذ أن وصلا الجبل أحسّ سليمان بعرق بارد يتصبب على جسده كلّه وضاقت خطاه فما يستطيع مجاراة قاسم حين يجدّ في سيره .

وفيما هما يصعدان ألحّ تساؤل مريب على روح سليمان ! هل يقتله ؟ كيف يستطيع امرؤ قتل إنسان مثله ؟ لكن قاسماً أجرم ، وحقّ عليه العقاب . غير أن سليمان الباشا غير موكل بعقاب المجرمين ... لم يجز لي الله القتل ، (ولو أجازه لي لما عرّفني على شيخي) ... ألم ينهي عن كل قتل ولوكان قتل ذبابه ؟ كيف يكون الإنسان أخ الإنسان ، اذا فكر وخطّط للجريمة ؟ أليس ذلك خروجاً على شريعة الإخاء ؟ وقال في نفسه :«لن أقتله!» فتوقّف تعرّقه . وتحرّرت قدماه من العقال النفسي الذي يعقلهما وحاذى قاسماً في الصعود ... لكن هلا ابنتي من ينتقم لها لقد بشر اللّه القاتل بالقتل ، وفعلة قاسم شبيهة بالذبح ... ألم يذبحها قاسم حين تخلّى عنها ؟ وسحّ جسده مرّة أخرى عرقاً بارداً ، ووهنت قدماه فما يستطيع اللحاق برفيقه ...

ووصلا إلى الخندق وهو على ذلك ، حتىّ إذا تخطّياه وباتا على المنزلق الذي يحيط بالقلعة في تلة صناعية ، أخذا يصعدان فتنزلق أقدامهما ، ويهبطان ثم يعاودان الصعود ...بلغ تردد سليمان قمته . ولما وصلا إلى الباب قال : «سأقتله!»

ثم جلسا ومدّا خرقة وضعا عليها العرق ، وما معهما من زاد وجرع سليمان أوّل جرعة ، وإذ به يرتدّ عن قراره . وأخذ يحدّث تلميذة عن الأمانه والإخلاص وكأنّه يلمحّ عن خيانته لهلا ... لكنّ التلميذ كان في دنيا أخرى .. ترى أكان يفكر في فتاة سواها ؟... ولقد سأله عن ذلك سليمان ، فلم ينكر قائلاً : «بلغت سنّ الزواج ... وأمّي وأبي يلحّان علي في هذا الشأن.»

ـ أبوك يلحّ عليك ؟

ـ نعم !

قال في نفسه سليمان «يارب جنبني أمر قتله ! ويبدو ألاّ مندوحة عنه ...لكن ليس الآن . لعلّه يرعوي ... لعلّه يرتد إلى الخلق السويّ ... ولأصبر عليه بعض الوقت.»

وانقضت عدة أيام ، يمرّ فيها التلميذ على معلّمه ومعه عدّة السهر والكأس وأغان كثيرة ، فيخرجان إلى القلعة حيث يجلسان على حافة الهوة ،ويرجعان بعد أن يغرقا في تأمّل واسع المدى وعميق في الكون اللانهائي الجمال . وهكذا استطاع قاسم أن ينسى هلا وما كان منه معها ، فيما ضاقت الدنيا قليلاً قليلاً عند سليمان ، حتى غدت مصيبته هلا ولا شيء سواها .

* * *

في تلك الأثناء لاحظ حميدو على هلا أمائر كثيرة تدلّ على أنها حبلى . أخذت تتقيّأ كثيراً ، وعافت الطعام ، وظهر على وجهها شرود يناقض مرحها السالف وشبابها الخالد الذي كان يمتنع على الحزن . ضحكتها التي كتغريد بلبل اختفت وكانت تبكي لسبب ومن دون سبب .

وأدركت الأم سبب اعتكار مزاجها وأسقط في يدها ، فلا تدري ما تفعل، ولم يكن لديها من تستجير به سوى سليمان .

قالت له حين جاءته زائرة في خفية عن زوجها : « هلا حامل فماذا نفعل؟» أنا سترني الله بحميدو . أما هلا فليس لها أحد ... » وبكت كثيراً.

قال لها : «سوف أحاول أن أصنع شيئاً.»

وحين ودّعته ، قام للتو إلى محمد العرجي ، وقابله وأطلعه على جليّة الأمر ، فقال : « ومايشغلك في هلا ؟ كأنها ابنتك . »

ارتجف لدى سماعه كلمة « ابنتك » ونزلت الدموع من عينيه وكأنّ تياراً

مسّ شغاف قلبه وقال وهو يلهث باكياً : «نعم إنها ابنتي!»

ـ فلتتزوّج أحد أبناء عشيرتها . وأظن سهلاً عليها أن يبني بها أحد لا يحاسبها على ما بدر منها .

ـ جهدت امها في ذلك ، فلم تجد من يتزوّجها ...

ـ يعني تريد أن يتزوجها قاسم ؟ هذا أمر مستحيل .

استمر هذا الحوار مدة طويلة ، لم يفز فيه سليمان بأيّ طائل فتركه دون أن يودّعه...

* * *

وسأل حميدو الأم عن الأعراض التي تنتاب ابنتها والتي تشبه ما ألمّ بالأم عندما كانت حاملاً بهلا ...

أجابته قائلة : « لم لا تسعى بتزويجها بدلاً من الاهتمام بحالتها الصحّية»

قال : « لقد فهمت ... فهمت ... إنها حبلى أليس كذلك ؟»

وصمتت الأم لا تحير جواباً ... لكن زوجها أضمر شيئاً آخر فهو يكره هلا منذ ميلادها . كان يعتبرها لقيطة دخيلة على بيته . ولكم ودّ أن يخنقها منذ ولادتها . بل لقد حاول وأخذ يتحيّن الفرص . لكن الأمّ خمّنت هذا الأمر فما كانت تدع له فرصته الانفراد بالصغيرة ، التي كانت آية نادرة بالجمال .

وكان حميدو ، عدا عن ذلك ، يغار منها فقد ولد له ستة أولاد : ثلاث بنات وثلاثة ذكور . وكان الفرق واضحاً بين هلا وبينهم جميعاً ، ليس في أيّ منهم رشاقتها وذكاؤها وحور عينيها ، وخضرتهما اللازوردية . وليست لهم الأجفان الطويلة الرموش ولا الخدّ الأسيل ، ولا القوام السامق الغضّ الميّاس ، إذا سارت أو قامت لشان من شؤونها .

أمّا الآن فقد حانت فرصة حميدو ، والذريعة التي نوى أن يتذرع بها مقبولة لدى العشيرة . لكنه خشي أن تفضحه الأم ، كان سهلاً عليه أن يذبحها

ويدفنها في بريّة الله الواسعة . لكن هل تسكت نوفة ؟

وضرب أخماساً بأسداس إلى أن قرّر أن يأخذها لطبيب يجري لها عملية إسقاط الجنين . لعلّها تقضي بها ، أو يدسّ لها السمّ بذريعة تناول الدواء .

حين فاتحت الأم هلا بما ينوي فعله ، من يدّعي أنه ابوها لم تعترض ... لم تقل شيئاً . استسلمت لقدرها ، أيّا كان هذا القدر ، وذهبت دون أن تنبس بينت شفة . ولقد سارت العملية بشكل يكاد يكون طبيعياً . أما الأجر فقد كان غالياً لأن مثل هذة العملية يعاقب عليها القانون ، واضطر حميدو لأن يبيع إسواريها كي يسدد النفقات .

* * *

عندما عادت إلى الخرابيش ، كان وجهها ممتقعاً أصفر إلى بياض، فأرقدتها أمها في فراشها لعلّها ترتاح . وسار كل شيء طبيعياً حتى اليوم الثاني، وإذا بهلا تستيقظ عند الفجر على دمها ينزف نزفاً شديداً ، واستدعوا لها الطبيب فحقنها بدواء يوقفه . وانقطع فعلاً حتى نصف الليل ، وإذا به يراجعها أقوى مما كان عليه في اليوم السابق . وانتظر حميدو الصباح كي يأتي بالطبيب مرة أخرى ... لكن هلا أغمضت عينيها عند الفجر في وسنٍ يشبه وسن العشاق ، لولا أنّه أبديّ ... كانت آنذاك شبيهة بشعاع شمس انطفأ وهو يصعد الهضبة كي يتم به شروق الفجر .

كان رحيلها غجرياً استيقظت فيه كل الأحزان التاريخية : دموع كثيرة وتنهّدات موجعة ولطم على الخدود ، وشدّ بالشعر ، وخبط على الصدر حتّى واروها التراب في مكان من البرّية قريب من منازل العشيرة . وما أن رموا على القبر آخر حفنه من تراب ، حتّى انقطع ما بينهم وبينها ، ورجع كل شيء إلى طبيعته ، غير أمها فقد جهدت في أن تكفكف دموعها ... لكن دون جدوى ، وأقسمت ألا تعود أبداً إلى مجيد آباد ، وأن تلبس السواد ما دامت حية ، وتلك

سنه جديده على العشيرة ... أمّا حميدو فلم يستطع إخفاء فرحه .

• • •

في اليوم التالي بكّرت نوفة بالنزول إلى مجيد آباد كي ترى سليمان. وجدته في داره مع أن عادته أن يبكّر للسوق كي يخدم زبائنه .

قال لها : « اسعدت صباحاً ... خير إن شاء الله ؟... أراك مبكّرة ؟»

وسحّت الدموع من عينيها جواباً على سؤاله ، لأنها لم تستطع النطق .

وأخذ يلحّ عليها : «ماالأمر ؟ قولي لي!».

قالت :«هلا» وأخذت تنتحب ...

ـ ما بالها هلا ؟

ـ ماتت ... ماتت هلا ياسليمان ... صارت تحت التراب ...

كأنّ جبلاً أرعن سقط على صدره ... كأن سكّيناً حادة دخلت في القلب ... عيناه ما تريان . كأنه أصيب بالعمى فلا يرى إلا عبر شرارات تتزلق أمامه فلا يدري أمن العينين انطلقت ، أم جاءت من العالم الخارجي . وارتجف جسده كلّه . دوار من عالم الموتى ألمّ به ، فسقط مغشيّاً عليه . وانتقلت الرجفة إلى نوفة وكذلك الدوار ، لكن الدموع أنقذتها من الإغماء فقامت وهي تترنّح وتتكيء على الجدار ، فحملت طاس ماء ورشّته على وجه سليمان ، فاستيقظ ، لكنه إنسان آخر ، لا علاقة بينه وبين سليمان ما قبل موت هلا ...

كلّمته نوفة فلم يع . والرجفة وحدها تدلّ على أنه ما زال حيّاً . قال لها : « دعيني أريد أن أنام ...» وأشار بيده إلى الغرفة فحزرت أنه لا يجرؤ على النزول إلى السرداب .

مرّت بي وروت لي كل ماحدث ، ورجتني أن أهتمّ به إن استطعت ، لعلّ طبيباً يداويه ، فالأزمة التي حلت به قلّما يشفى منها من يعانيها برأي الطبّ الغجري الذي توارثوه من أيام المعتصم .

وذهبتُ إليه مع طبيب صديق . وجربنا أن نوقظه فلم نستطع . فقال لي الطبيب : « النوم أفضل علاج له . دعه هكذا فقد يطول نومه . وما دمت تهتمّ به مرّ به في الغد . وأنا متأكد أنه لن يفتح عينيه قبل ذلك الوقت .

وفي صبيحة اليوم التالي جئته مبكّراً ... ما زال نائماً ... انتظرت ... استيقظ والشمس رأد الضحى . حين رآني قال : « أراك هنا لم تزرني من قبل . ماذا جرى؟ »

ـ كيف تجد نفسك ؟ قلتها كي أتهرّب من الجواب على سؤاله .

لم يجب . أطرق وحدّق إلى الأرض ، دون أن يردّ بأية كلمة . طال إطراقه وأنا أنظر إليه ، كأني أنتظر جواباً عن أسئلة كثيرة ، لم تتح لي فرصة طرحها عليه ، وفجأة استعبر باكياً . وطال بكاؤه ، وأنا بين الحين والحين اشجعه على الانتحاب لأني قدّرت أن الدموع تشفيه من كمده .

ترى كم من الوقت استمرّ بكاؤه ؟ من يدري ! لقد أيقنت ساعتها أنّ دموع الحزن لا عمر لها . كان منظره يقطع القلب . أردت أن أكلّمه . لكنني كنت موقناً أنّ الكلمات فقدت عنده معناها ...

وتوقف عن بكائه ، ثم نظر حواليه يمنة ويسرة وسألني : « غريب كأنّ لا أحد هنا... أين ذهبت ؟

قلت : من ؟

ـ بلقيس ... جاءتني تحمل لي نبأ موت ابنتنا ...

قال ذلك ببساطة غريبة ، كأن الأمر لا يعنيه ... وأخذ يروي لي آخر أبيات العتابا التي حفظها . وقام فتناول الرباب ، وبدأ يعزف ويغني أغاني حزينه ... وطال به الغناء وطال بي الشوق إلى استماع المزيد ، وإذا به فجأة يقول «ماذا جرى لي ؟ يجب أن أذهب إلى العمل ...عدم المؤاخذة.»

ونهضت معه فيممت شطر بيتي ،وذهب هو لطيّته .

وجاءني حوالي العصر وهو لا يبدو عليه أيّ أثر للحزن . قال : « اسمع ! أريد أن أضيفك الى زبائني الذين أحمل لهم حوائجهم للسوق ، لعلّي أزيد قليلاً في ربحي اليومي.»

ـ على الرحب والسعة .

وجاءني في اليوم التالي ، فطرق الباب وقال : « ها قد جئت إليك . ما الذي أنت بحاجة إلية اليوم ؟»

أعطيته مائة ليرة وذكرت ما أريد . ولم يطل غيابه . رجع بعد حوالي ساعة والأشياء التي طلبتها ناقصة . لم أقل شيئاً وذهبت إلى السوق فاشتريتها . وتكرر نسيانه ، فاقترحت عليه أن أكتب له ورقة صغيرة بما أريد . وأتيته بدفتر خاص لذلك .كل صفحة منه ليوم . وبعد خمسة أو ستة أيام قال لي : « رميت الدفتر في حاوية الزبالة . »

ـ لماذا ؟

ـ لست معتوهاً . بوسعي أن أذكر دون عناء خمسة أو ستة أشياء ، قلت له : «لامانع عندي ...»

لكن النسيان استفحل عنده . أطلب خسّاً فيأتيني بفجل ، حتى إذا نبهته قال : « وما الفرق بين الفجل والخسّ ؟ كلاهما خضرة ! »

ولقد لاحظت كأنه انقطع عن رؤية قاسم العرجي . وحدثتني نفسي أن كلاهما تجنب الآخر كي لا تنكأ الجراح . وذات يوم جاءني مربدّ الوجه ، محتقن التقاطيع فسألته عماّ به . قال : «رأيت في السوق قاسماً.» وانفجر باكياً.

عاودته الحالة التي كان عليها يوم ذهبت لزيارته بعد موت هلا . لكنها لم تدم طويلاً وودّعني قائلاً : « سأذهب للبيت كي أغني ! »

وبعد قليل تبعته كي استمع إليه من وراء الجدار ، لم أشأ أن أخدّش عليه

وحدته . وأخذ المارة يقفون كي يستمعوا معي . وكثر العدد . وكأنّه أحسّ بوجودنا فخرج إلينا وأخذ يشتمنا ، وينعتنا بأبشع النعوت ، فتفرّقنا ...

لم يبق سواي . لم أرم مكاني رغبة في اسماع المزيد . لكنّه لم يعاود نشيده وفتحت الباب ودخلت . وجدته نائماً في غرفته . وتأكدّت أنه امتنع أخيراً عن النوم في السرداب .كان يشخر ويتكلم في منامه ، وكأنه يعارك شخصاً ما ...

في اليوم التالي جاءني فقال : « اسمع ! رأيت أمي في المنام . أنذرتني أني سأموت قريباً . طلبت مني أن أمتنع عن حبّ بلقيس وكأني مجنون ليلى ... أعتذر اليوم عن جلب الأغراض مبكراً . عندي مشوار . ولدى عودتي أشتري لك أشياءك.»

ونهض على عجل ، ولم يخف علي أنه منهمك فيما لا يريد ذكره ، انتظرته نحو ساعتين . وإذا به يعود أشدّ احتقاناً بالوجه من أيّ يوم آخر .

سألته : « مابك ياسليمان ؟»

قال : « لقد رحل الغجر ...»

- وما في هذا ؟

- ذهبت كي أطلب من زوج بلقيس الطلاق لعلي أستطيع الزواج منها فأدرك ما فاتني في شبابي ...

- تأخرت ياسليمان ...

وذهب فأتاني بأشيائي من السوق ، ورجع ووجهه على ما كان عليه ، حين ردّ لي بقيّة الدراهم ، أردت أن أعطيه الباقي لعلّي أرفّه عنه . قلت له : «اشتر بالباقي عرقاً . » أجابني : « لست شحاداً . أشتري ما أريد من عرق جبيني . »

وألحيت عليه مؤكداً له أننا كأخوين ، وأنّي لا أعطيه كديه وإنما قيام

بواجب الأخوة واستمرّ على الرفض .
لما رجع إلى السوق رآه على تلك الحال قاسم فحيّاه ، فردّ التحية لا حبّاً به وإنما لأنه تصوّر أنّ في صوته شيئاً من هلا ...
قال له قاسم : ما رأيك أن نذهب اليوم إلى شماميس ؟
قال سليمان : بل غداً ...
ترى لماذا أجّل إلى الغد ؟ ألم يكن ذلك من التردّد الذي ينهاه عن قتل قاسم ؟

* * *

في اليوم الثاني تأهبا ، فأخذا معهما عدّة التأمّل ويمّما شطر القلعة القديمة وسليمان ترود ذهنه أفكار عديدة . تارة يصمّم ، وأخرى يعلن بينه وبين نفسه تراجعه .
هل يقتل هذا الفتى الذي أولاه الحبّ كله والطاعة كلّها ؟ لكنّ خيال هلا كان يتمثّل له في حيرته وخوفه ، يطلب إليه أن ينفّذ . هي على طيب قلبها وجماله كانت أيضاً حاقدة . تطالب بالثأر ممن ازدراها واعتبرها صيداً سهلاً، يطيب للمرء أن يصيب منه ما يشتهي ، ويلفظه عندما تهمد شهوته . طيفها كان يزور أباها في المنام ويبكي دون أية كلمة . وسليمان يفهم من ذلك أن دموعها تحضّه على الإنتقام لها .
لقد امتنعت عن زيارة أبيها منذ أعلن له محمد العرجي ألاّ زواج مهما كان الأمر لأنها لا تريد أن تنغّص عليه كهولته . ولقد ازدراه العرجيّ كما يزدري أيّ غنيّ سفيه فقيراً ، ونسي أنه كان مثله صاحب ثروة . أمّا طيفها فأمره مختلف . كان يغار من الأحياء الذين يتمتعون بشبابهم .

* * *

عندما وصلا إلى السفح بلغ تردد سليمان أوجه . رقّ لقاسم قلبه وأسف

على شبابه وقرر ان يتركه للعدالة السماوية . العواطف نفسها والتردّد نفسه حاقا به .

لم يكن يستطيع أن يتخذ قراراً حاسماً ... هل يقتل ؟ هل هو قادر على القتل ؟ هل بوسعه أن يزهق النفس البشرية ؟ هل قدر الإنسان الطيب القلب يؤول إلى أن يصبح قاتلاً ؟

كان ينظر إلى نجوم السماء ، ويكلم الله عبرها في سره . يقول له : «يارب جنبني هذا المصير الأسود ...» لكن هلا لن ترجع وقد يكون هو مكلفاً من العناية الإلهية بالإنتقام لها.

وارتقيا الجبل وقد وصل سليمان إلى حال من التوازن العاطفي الذي يسبق القرار الحاسم . واتزن خطوه مع خطو قاسم ، رغم ثقل الأفكار التي تبكت ضميره .

وقف سليمان عندما وصلا إلى خندق الحصار الذي كانوا يملؤونه ماء إذا هدّد القلعة عدوّ . كاد يقول لقاسم ما ينوي فعله . لكن لماذا الإعلان عن الجريمة قبل وقوعها . إن الجريمة المحكمة يجب أن تكون سرّاً كتيماً بين القدر وبين الفاعل .

وقف سليمان ونهد قاسم وقال :

ـ ما بالك ياعم سليمان ؟ هل تعبت ؟

كأن الصوت جاءه من بعيد ، من وراء كوننا المادّي . وكأن سليمان استفاق على حلمه بالقتل .

قال : لا لم أتعب ... ها أنذا ... ولو أن كمداً عجيباً وكئيباً يعصر كل كياني وبخاصة القلب .

وجدّا بالمسير على المنحدر المنزلق الصعب . خطا قاسم كانت مرنة وسريعة أما سليمان فقد تعثّر وكبا أكثر من مّرة خلافاً لعادته . ووصلا قمة

المنحدر بعد لأي ، وجلسا على حافة الهوة . مدّا البساط الصغير ووضعا عليه زادهما وشرابهما . وبدأ سليمان يروي وكأنه غائب ، حكاية الحلاّج ، بالرغم من أن قاسماً سمعها منه أكثر من مرّة . لكنه في هذا المساء كان مشوقاً إلى ذكر شهيد نادر ، لعلّه يهديه على سبيل الشهادة . لعله يأخذ بيده على طريق الموت والقتل ... الموت لماذا يخطر بباله ؟ ألن يعيش طويلاً بعد قاسم ؟

كان بحاجة إلى شهيد يأخذ بيده على طريق الحسم بين الموت والقتل أو السلامة.

قال بينه وبين نفسه : « أدفعه وأرتدّ إلى وراء ، فأنجو بنفسي وأقول للناس سكر فسقط .» «نعم أدفعه ثم أرتّد ... يجب أن تكون الدفعة قوية حتى الجنون، وكذلك الارتداد .» ثم أستأنف حديثه الجوانيّ بعد توقف قليل : «لكني كيف أستطيع أن أواجه البشر ؟ كيف بوسعي أن أرى إلى وجهي بالمرآة بعد أن أقتل .» ثم استأنف حديثه عن الحلاّج . قال : « كان بوسعه أن يرتد عن كل ما قال ، وينجو بنفسه فيعيش لقد ناقشه الشيخ المحقق في بيته الذي يقول فيه :

فإذا أبصرته أبصرتني وإذا أبصرتني أبصرتنا

سأله :« كيف يكون ذلك ؟»

فأجاب : « الذكر هو رؤيا . عندما تذكر الله من صميمك فأنت تراه أو تكاد تراه . أولا تذكر الله عندما تراني ؟ وبعد ذلك أنا قلت أبصر ولم أقل رأى والبصيرة هي الرؤية العقلية النفسية .»

ـ وما معنى قولك :

أن أمت ياقوم يومأبينكم لست ذا الميت والله أنا

ـ مادمت تبصره حين تبصرني . فأنا بعض من خلوده . ومن قال إن الإنسان يموت بموته ؟ ألا ينتقل إلى حياة أخرى ؟ هل تنكر الآخرة ؟ أوليس الإنسان

خالداً ؟ والخلود من صفات الله ...
ـ وماذا عن شعرك الذي تقول فيه :

قال لي المحبوب لما زرته من ببابي قلت بالباب أنا
قال لي أنكرت توحيد الهوى حينما فرّقت فيما بيننا
وانقضى عام فلّما زرته أطرق الباب عليه موهنا
قال من هذا فقلت انظر فما ثمّ بالباب سوى أنت هنا
قال لي أدركت توحيد الهوى وعرفت الحب فادخل يا أنا

قال المحقق : « كيف تقول حينما فرّقت فيما بيننا ؟»

قال الحلاّج : « كل من فرّق بين الخالق وخلقه هو بعيد عن الإيمان.»

ـ أنت لا تفرّق بين الخالق والمخلوق ؟

ـ لا ... لا أفرّق .

ـ ألا تعلم أنك تحكم على نفسك بالموت ؟

ـ أعلم وأفرح بلقيا المحبوب . فأنا أحبّ قاتلي ، لأنه ينقذني من هذا الجسد الفاني ويجعلني خالداً سرمدياً.

كان سليمان يتكلم وهما يشربان ، دون أن يدري أنه يؤلّف قصّة اسمها (شهادة الحلاج) . وعندما وصل إلى هذا الحدّ من شطحاته بات القتل عنده عملاً عظيماً وجميلاً ، لأنه ينقذ روح الإنسان الرهينة في جسده من حبسها .

عندها آمن بفعلته ، ورأى فيها واجباً يقوم فيه الإنسان نحو الآخرين وتمني لو يوجد من يقتله في الساعة نفسها .

بات كل شيء عنده مقرراً ، مقدّراً أحسن تقدير : يدفع قاسماً إلى الهوّة فيهوي ويرجع هو إلى أبيه فيقول له : « لقد انزلق من غير انتباه فهوى .»

وصل به الحديث إلى الكيفية التي صلب فيها الحلاّج فقال : « حينما قطعوا رجليه ويديه ، خاف أن يبدو وجهه أصفر ، فأخذ يمسحه بدم ساعديه

ويقول : « اللهم جئت رحابك شهيداً ، فاشهد علي ذلك . »

عندها دفع قاسماً فانزلق واهتز ، وفي خوفه تمسّك بقدم سليمان فسقطا معاً.

آنئذ توقف شيء ما في الوجود . قد يكون الوقت . العالم صار آخر ، شديد اللمعان والأضواء ، داخلته هينمات خفيّة ، تشبه حفيف أجنحة ملائكة وتوقّف الإثنان ، بقدرة عجيبة ، في منتصف الطريق إلى القاع . وتدفقت المياة في قاع الهوة من الينابيع التي سدّها تراكم الحجارة مع الزمن ، وجرت مثل عهدها القديم في الساقية التي تؤدي إلى العين الزرقاء ، وحوالي الجبل رجعت الأشجار القديمة بكلّ زهوها وشبابها وجمالها . وتذكر سليمان أن تلك ليلة القدر . وتذكّر أن لمشاهدها الحق في أمنيات ثلاث .

كان بوسعه أن يتمنى على الله الرجوع إليّ حيث كان ، على طرف الهوّة، وأن ينال من ثروة العالم ما يطيب له . لكنه في نزوة من نزواته التقية فضل وجه الله ، فقال : « ياربّ خذني إليك ، وخذه معي . أتمّ يارب فصول هذة المأساة الحزينه التي هي مأساتي .»

كانت تلك أمنيات سليمان الثلاثة ، وسقط هو وقاسم إلى القاع وأخذتهما الماء إلى العين الزرقاء ، التي رجعت إلى ما كانت عليه - إبان الرؤيا - بستانا يمرع بفاكهة وخضرة وأعناب ومياه .

ورجع الوقت إلى ديمومته ، وعاد كل شيء إلى طبيعته . وظهرت جثتان مبللتان ، قضتا في الرحلة بين الهوة والعين . وقليلون هم الذين علموا بسرّ موتها .

بل ربّما كان محمد العرجي الوحيد الذي أدرك سرّ هذة الميتة ، فباح بها لي قبل وفاته بأيام قليلة . كتم أمرها خشية من تكذيب الناس له . وما أسرّ بها اليّ إلا لمعرفته بأني أصدّق كل ما يروى عن سليمان .

وأحبّ أن يخلّد شهيديه ، فبنى لهما قبراً واحداً على ما بقي من أثر للعين الزرقاء ، قبراً يمرّ به العابرون فيعجبون لوجوده في هذا المكان الجافّ الخالي من الحياة .

* * *

١٠ - ٦ - ١٩٩٣ .

كتب للمؤلف

تأليف :

اراغون

(نقد ودراسة عن الشاعر الفرنسي لويس اراغون)

في البدء كانت الثورة

(مسرحية لغير التمثيل)

ترجمة :

بيت الأرواح

تأليف : ايزابيل الليندي

مائة عام من العزلة

تأليف : غابرييل غارسيا ماركيز

مجنون السا

تأليف اراغون

كل عمل متميز يدفع الناشر لأن يكتب بضع كلمات يمسك من خلالها بشيء من روح العمل؛ يسعى الى ان يلامس، أو يكاد يلامس، الاشخاص الذين تعرف عليهم اثناء قراءته، يبصر الالوان التي رسم الكاتب بها عوالمه؛ ينصت الى ايقاع اللغة وهي تبوح له؛ يحاول التعرف على بنية هذا العمل، والى اية مدرسة يحيلها.

ما الذي يجده بعد أن تستقر هذه الرغبات ؟

ربما لا يجد افضل من أن يجعل نفسه واحداً من القراء. ويدع العمل يقدم نفسه بنفسه.

الناشر